المملكة العربية السعودية
وزارة التعـــليم العالي
جامــعة أم الـــــقرى
كلية اللغة العـــــربية
قســـم الدراسات العليا

السخرية في شعر عبدالله البردّوني

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد الطالب

مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني

الرقم الجامعي : ٤٢٥٨٠١١٠

إشراف سعادة

الأستاذ الدكتور / حسن محمّد باجودة

العام الدراسي ١٤٣١ هـ

الملخص

العنوان : السخريّة في شعر عبدالله البردّوني .
الباحـث : مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني .
الدرجـة : الماجستير في الأدب .

يهدف البحث إلى إثراء موضوع السخريّة في المكتبة العربية ، والدراسات المتخصصة في هذا المجال ، لأن البحث في هذا الجانب يعد قليلا نسبيا ، لأن السخريّة فن أدبي قائم بذاته يستحق الدراسة والبحث ، وقد تناوله كثير من الأدباء على مرّ العصور .

جاء البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، تناولت المقدمة أهمية الدراسة، و وسبب اختيارها ، وتناول التمهيد حياة البردّوني ، وتناول الفصل الأول معنى السخرية ،و دوافع السخرية لدى البردّوني ، وتناول الفصل الثاني أساليب السخرية في شعر البردّوني .

توصل البحث إلى أن شعر البردّوني يغلب عليه طابع السخرية في معظم جوانبه ، وأن السخرية في شعر البردّوني ليست من قبيل التشفي الشخصي، بل هي سخرية الناقد المصلح ، الذي يبرز العيوب للتخلص منها بأسلوب ساخر .

مما يوصي به البحث : دراسة أدب البردّوني بشكل عام لأنه مجال خصب للدراسات .

Abstract

Address: irony in the poetry of Abdullah Baraddoni.

Researcher: Musaed bin Saad bin Dhahyan Thubiani.

Degree: Master's in Literature and Rhetoric.

The research aims to enrich the subject of ridicule in the Arabic library, and specialized studies in this area because the research in this area is relatively small because the ironic art of literary stand-alone deserves study and research, has dealt with many writers over the ages.

The research in the introduction, preface, and two chapters, dealt with the importance of the study, and why it addressed the boot Bardouni life, and the first chapter discusses the meaning of irony, sarcasm and the motives of the Baraddouni, and the second chapter deals with methods of irony in the poetry of Baraddouni The research into poetry Baraddouni dominated by irony in most aspects of that irony in the poetry of Baraddouni is not such as personal revenge, but is ironic critic reformer, which highlights the defects of the disposal of cynical.

This research recommends: Baraddouni study literature in general because it is fertile ground for studies


بسم الله الرحمن الرحيم


المقدمة

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن أهتدى بهديه إلى يوم الدين .

لقد حاولت في هذا البحث أن أقف على جانب مهم من جوانب الدراسة الأدبية ، والمتمثل في جانب السخرية ، وكيف يستطيع الأديب أن يتخذ السخرية أسلوبا ، يستطيع من خلاله أن يعبّر عن معاناته ، ومعاناة أمته ، ومن خلال دراستي لهذا الجانب وجدت شحّا في الدراسات الأدبية التي اعتنت بمثل هذا الجانب ، ولم يقتصر هذا الشح على دراسة هذه الظاهرة فقط ، وإنما وجدت الأمر يمتد ليشمل الشاعر المعنيّ بالدراسة وهو الشاعر عبدالله البردّوني وهذا يعود لعدّة أسباب حاولت أن أسلط الضوء عليها في التمهيد لعدم الإطالة في المقدمة .

ولم أقف على دراسة تتناول جانب السخرية لدى البردّوني ، إلا مقالا في مجلة الكويت العدد ٢٢٧ للدكتور وليد المشوح تتطرق فيه إلى السخرية في شعر البردّوني بشكل عام ، وكيف أن البردّوني في تجربته الإبداعية كان يعتمد على هذا الأسلوب ، فكان هذا حافزا لي ليكون هذا البحث أكثر عمقا في تناول تجربة البردّوني الساخرة ، كما أن الدراسات التي تناولت تجربة البردّوني الإبداعية لم تكن بتلك الغزارة ، وإن كانت ذات وزن ، ولم أقف إلا على الدراسات التالية :

١ ـ (البردّوني شاعرا وكاتبا) ـ طه حسين إسماعيل .

وهي عبارة عن رسالة دكتوراه ، تناول فيها الباحث حياة البردوني الأدبية ، وأهم القضايا التي تناولها البردّوني في أدبه ، وأهمية هذا الأدب ، وما يحمله من فكر وإبداع .

٢ - (الصورة في شعر عبدالله البردّوني) - د / وليد مشوح .

وهي دراسة نقدية نال بها الباحث درجة الدكتوراه ، وقد تناول فيها الصورة عند عبدالله البردّوني ، وما أحدثه من تجديد في هذه الصور ، والمدارس التي تأثر بها البردّوني في إبداعه للصورة الشعرية.

٣ - (شعر البردّوني) - محمد أحمد قضاة .

هي رسالة دكتوراه ، تناول فيها الباحث أساليب البردّوني الشعرية ، واتجاهاته الفنية، وأهم التجديدات في هذا الشعر .

ومع وجود هذه الدراسات إلا أن جانبا مهمّا من أساليب البردّوني لم تقف عنده كل هذه الدراسات ، فالدراسات السابقة لم تتعرض للأسلوب الساخر في شعر البردّوني بشكل متعمق ، يكشف عن جوانب هذه السخرية التي صبغت أدب البردّوني بلون ميزه عن بقية الأدباء ، بل جعل له سمة وطعما يختلف عن غيره من المبدعين .

لذلك حاولت في هذه الدراسة أن أتقرب إلى ساحة البردّوني الساخرة لأقف على أهم تلك الجوانب التي أضاءت بتجربة البردّوني الساخرة فكان البحث في تمهيد وفصلين .

جاء التمهيد ليكشف الغطاء عن أهمية الجانب الساخر في الدراسات الأدبية ، ولماذا لم يهتم الدارسون بالتجربة الإبداعية اليمنية ، و ليسلط الضوء على حياة البردّوني .

أما الفصل الأول فكان على مبحثين :

الأول حاول البحث فيه أن يقف مع معنى السخرية اللغوي والأدبي . والثاني كان البحث يحاول فيه بيان أسباب توجه البردّوني لأسلوب السخرية في تجربته الإبداعية .

أما الفصل الثاني فكان يحاول البحث فيه أن يقف على أهم الأساليب التي استطاع من خلالها البردّوني أن يعبّر عن سخريته .

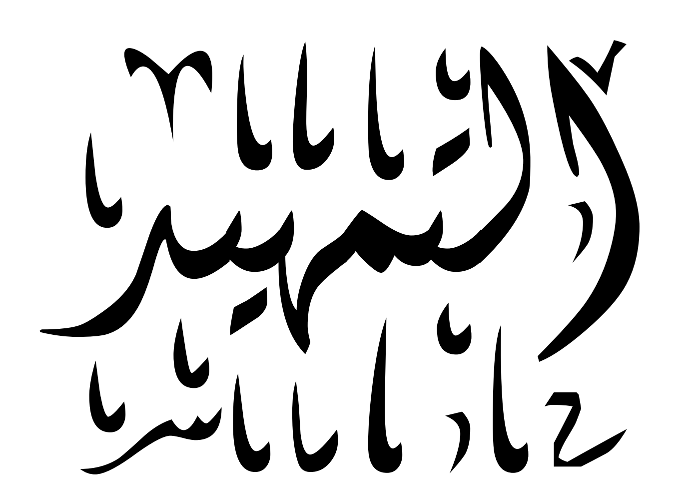
لقد حاول البحث أن يقف مع تجربة البردّوني الإبداعية ، خاصة في الكشف عن تجربته الساخرة ، وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال وصف الظاهرة ثم تحليلها ، كما أني استفدت من المنهج النفسي في تفسير بعض الظواهر عند الشاعر . أسأل الله التوفيق والسداد .

كما لا يفوتني في هذه المقدمة أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من الأستاذ الدكتور عبدالله بن إبراهيم الزهراني الذي كان له الفضل بعد الله في اختيار هذا الموضوع ، وأعانني بجهده وفكره في إعداد خطة هذا البحث . والإشراف على جزء من هذا البحث قبل تفرغه العلمي .

والشكر موصول للأستاذ الدكتور حسن محمّد باجودة الذي أكمل معي مسيرة الإشراف على هذا البحث حتى إتمامه . فكان له الفضل في إخراجه بهذه الصورة .

والشكر موصول لكل من أسهم في إنجاز هذا العمل .

والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .



التمهيد :

السخرية سلاح اتخذه المبدعون لقهر واقعهم المرير ، فأخذوا يصورون هذا الواقع، وينقدونه من خلال ضحكة مغموسة بألم المعاناة ، حاولوا من خلالها أن يصلحوا ويغيروا واقع أمتهم ، فتغلغلوا في تركيبة النفس البشرية ، لينتزعوا منها الضحكة بدل الدمعة ،لتكون طوق النجاة في بحر المعاناة الذي تعيشه أمتهم ، لذلك كان الأدب الساخر نبض حياة الأمم ، فلا يخلو منه أدب أمة حيّة ، فهو أدب عالمي لا يقتصر على أمة دون أخرى ، قد جعل البسمة طريقه ، والضحكة أداته الفاعلة ، فعبّر بها عن كل الحالات النفسية التي تعترض الإنسان . يقول الدكتور محمد فرشوخ: " وقد رافقت الضحكة الإنسان في عمره عبر الزمان ، رافقته تعبر عن حالاته النفسية " [١].

ولكون السخرية أداة فاعلة في التعبير عن هذه المشاعر الإنسانية بتنوعها فقد صاحبت الإنسان من أقدم العصور يقول الدكتور : السيد عبدالحليم محمد حسين " والسخرية قديمة قدم الإنسان ، لأنها قد تكون ترويحاً عن النفس أو تسرية عن القلب،أواستنكاراً لما يقع ، أو هزءاً وتندراً بالخصم " [٢]

إذاً فالسخرية تتنوع أهدافها بتنوع الحياة المعاشة ، لكن ما لا يقبل الجدل أن أسماها وأعلاها، هو ذلك النوع الراقي الذي يستطيع به المبدع أن يقف على جراحات الأمة ، يطببها ويخرجها مما هي فيه بلمسة ضاحكة تحمل دمعة المعاناة . وهذا أدب لا

---

[١] **الفكاهة في لبنان دراسة وعرض – دار الفكر اللبناني ص٢٢**

[٢] **السخرية في أدب الجاحظ . السيد عبد الحميد محمد حسين ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ن ط١ سنة ١٣٩٧ص٦٤**

يستطيعه إلا من جرب الحياة ، وخاض غمارها ، فعلمته ودربته أن يستبدل الابتسامة بالدمعة ، فالسخرية بهذا التصور قدر العظماء من البشر ، العظماء الذين يتلمسون أعماق أمتهم ، ليصلوا إلى قلوبها عن طريق ضحكة ، يرمون من ورائها كشف معاناة هذه الأمة .

ورحم الله أبا الطيب عندما قال :

وكم ذا بمصر من المضحكا　　　　ت ولكنه ضحك كالبكا[1]

فالأدب الساخر الذي يسعى إلى الإصلاح وإبراز مشاكل الأمة يتوهج كل ما زادت عليه الضغوط ، ويفرز لنا إبداعاته كلما هبت المعاناة على شاطئه الإبداعي . فالإبداع فيه مقترن بالمعاناة . فالساخرون ضحكوا من معاناتهم ليقفوا مع أمتهم في وجه محنتها، ويغيروا واقعها للأفضل ، لذلك فانتزاع البسمة بدلا من الدمعة للوصول إلى هذه الأهداف أمر صعب يتطلب مقدرة عالية وموهبة جبارة ، لذلك وجدنا أن الأدب الساخر لا يكون في إبداعات المبدع إلا بعد نضوج تجربته الشعرية ، وبعد أن تعلمه الأيام كيف يضحك بدلاً من أن يبكي يقول أدونيس : " الأدب الساخر لون صعب الأداء يتطلّب موهبة خاصة وذكاءً حاداً وبديهة حاضرة "[2]

والأدب العربي زاخر بالتجارب الأدبية الساخرة منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، وخير دليل على ذلك أنه قسيم أهم غرض من أغراض الشّعر وهو الهجاء . فنجدهم قد سخروا من خلال هجائهم ،إذ تناولوا العادات التي لم يرغبوا فيها من خلال تحقيرها ، والسخرية من صاحبها لكنه كان غير منضبط إلى أن جاء أبو بحر

[1] ديوان المتنبي شرح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ ص ١٦٧
[2] مقدمة الشعر العربي ، أدونيس ، دار العودة ، بيروت ط٣ ، ١٩٧٩ ص٤١

الأديب الألمعي شيخ الساخرين الجاحظ ، فجعل من السخرية فناً قائماً بذاته من خلال كتاباته الساخرة . لذلك يعد أول من ألف كتابا مستقلا خاض من خلاله في النفس البشرية ليخرج من أعماقها أدبا ساخرا ، جعله سوطا يضرب به متناقضات الحياة، ويخلص به الحياة مّما يعتريها من المغالطات والزيف والنفاق .

يقول الدكتور عبدالحليم محمد حسين " كانت السخرية فيما سبق – قبل الجاحظ – نتفاً تأتي عفوية تارة ، ومقصودة لغرض من الأغراض السياسية تارة أخرى دون أن تقوم بالتفاصيل النابضة بالحياة تحليلاً ، وتصويراً ، وتشخيصاً ، واستنباطاً لدخائل النفوس ، وإبرازاً لخصائص المجتمع ...... من هنا كان الجاحظ أول مؤلف في تاريخ الأدب يخص كتباً بأكملها في السخرية تحليلاً ودراسة ، كما فعل في كتابه البخلاء ، ورسالته التربيع والتدوير ."[1] من هنا نرى أن الأدب لم يعرف السخرية التي تغوص في ضمير الأمة العربية، وتحليل نفسية أبنائها إلا على يد الجاحظ الذي كان أستاذاً لمن جاء بعده من الأدباء الساخرين .هذا في جانب النثر أما في جانب الشعر فقد أشرنا في البداية إلى غرض الهجاء وكيف استخدمته العرب في إظهار العيوب وتخليص المجتمع منها فظهر لنا شعراء أجادوا في استخدامه مثل الحطيئة ، وابن الرومي ، لكن من يصدق عليه أدب السخرية ، أو من استطاع أن يبحر في أدب السخرية هو الشاعر أبو العلاء المعري ، الذي واجه الحياة ومحنتها الدائمة بالسخرية مرة والنفاذ بالوعي والحكمة إلى صميمها مرة أخرى . استطاع التخلص من كل

[1] السخرية في أدب الجاحظ ص ٨٧

عوائقه بالسخرية ، فلم تمنعه معاناته من فقد البصر ومرضه ، ونحول جسمه من الإبداع ، بل والتفوق . يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الـــــنبأ النبيث [١]

لفقدي ناظري ولزوم بيـــتي وكون النفس في الجسم الخبيث [٢]

كل هذه المعاناة لم تمنع الشاعر أن يحلق في سماء الإبداع وهو الذي يملك تلك النفس الطموحة إلى الوصول إلى ذرى العظمة والعلياء .

و إني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ [٣]

وقد تأثر بأبي العلاء العديد من الشعراء ومن أبرزهم في العصر الحديث هو شاعر اليمن،وابنها البار،الذي عاش تجربة قريبة من تجربة أبي العلاء،إن لم نقل إنه عاش تجربة أشد مضاضة منه،وأظن الاختلاف في شدة المعاناة يعود إلى أن أبا العلاء عاش في عصر يقدر الأدب ، ويرفع من شأن الأديب حتى لو كان هناك بعض الظلم الذي يلحق ببعض الأدباء إلا أن الأديب يشعر ببعض الراحة عند التنفيس عن مشاعره، فيجد من يسمع هذه الشكوى ، ويردد هذا الألم . أما البردّوني فقد عاش في زمن أطبق الجهل فيه على الناس ، فقليل ما نرى من يهتم بالأدب ، أو بالعلم بشكل عام لذلك أضيف إلى هموم شاعرنا هم آخر ، ألا وهو عدم وجود من يستمع إليه ، وإلى شكواه ، لذلك قرر وفي إصرار أن يخاطب الشعب بلغة تستميله ، ويستطيع بها

---

[١] النبيث : المستخرج المظهر يقال : نبثت تراب البئر إذا أخرجته ، ويقال لما يستخرج من ترابها : النبيثة ، والنبيذة .

[٢] المختار من لزوميات أبي العلاء المعري ، شرح واختيار أبو محمد عبدالله البطليوسي ، حققه حامد عبد الحميد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ م ، ص ١١٩

[٣] ديوان سقط الزند ، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود ، عبد السلام هارون،إبراهيم الإبياري ، حامد عبد المجيد ، بإشراف د / طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨ هـ ، ج ٢ ص ٥٢٥

التواصل معه والبوح بما يريده من خلالها ، وجد أن اللغة الساخرة هي أقرب طريق إلى قلوب شعب سيطرت عليه الأمية ، فجعل من البسمة طريقا إلى رفض كل ما يستحق الرفض ، وجعلها أمله في تعديل أوضاع بلده السياسية والاجتماعية ، بلده الذي أفني عمره مناضلا في سبيله ، ومجاهدا لرفع رايته بين الأمم ، وشخصية عبدالله البردّوني الساخرة . شخصية جاذبة لافتة تغري من عبر رياضها ، وذاق حلو ثمارها أن يوغل حيث أوغلت ، ويبحر حيث أبحرت ، وقد كنت ممن وقع في شباك عالمه الساخر الناضح بالألم ، فلملمت أطراف وعيي لأسجل - ما استطعت - من دوافع هذه السخرية ، وأهم أساليبها .

كما يجدر الإشارة إلى أن الدراسة من المواطن التي ابتعدت عنها أقلام الدارسين إلا القلة القليلة منهم، مدعين أننا في عصر نحتاج فيه إلى الجد بدلاً من الهزل.يقول الدكتور محمد فرشوخ " لكن الطريق شائك والمحطة أقل لمعاناً منها بعد الدراسات الرصينة في النقد والتقويم والتأريخ ، ولست أرهب سؤالاً يطرح: أتختار الأدب الضاحك في وقت نحن أحوج فيه ما نكون إلى الجد؟ "[١].

إذاً السبب كما يراه الدكتور فرشوخ يعود إلى الدارس نفسه أولاً حيث لا يجد في هذا الأدب إرضاءً لطموحاته ، فالأدب الجاد أكثر نفعاً وإرضاءً لهذه الطموحات كما عبر بقوله ((أقل لمعاناً)) ، وهناك السبب الآخر وهو أن المجتمع الأدبي يعيش فترة جدّ ومعاناة مع مواقف مريرة في الحياة المعاصرة، فلا سبيل لنيل الاحترام عند التطرق إلى دراسات تسعى إلى الضحك وإثارة الفرح والسرور .

[١] أدب الفكاهة في لبنان ص٧

أما الجواب على التصور الأول فإن جديّة الدراسة أو ضعفها لا يعتمد على نوع الأدب المدروس فقد أدرس موضوعات فيها من الهم والحزن والجدة ما يبكي أكثر الناس ضحكاً ، لكني أتناولها بطريقة تضحك أشد الناس تشاؤماً ، فالدراسة بما تقدمه لا بما تتناوله هذا في رأي البحث . أما الإجابة على التصور الثاني فمن شقين الأول منها أننا بحاجة مع ما يحيط بنا من سوداوية الحياة إلى منابع فرح وسرور تكون بارقة أمل لغد مشرق بحول الله وقوته ، أما الشق الآخر فإن كون الضحك ملازما للفرح أمر ذهب وقته وأصبح مع ملازمته للفرح يحمل في طياته المعاناة والألم والجراح ، فكما قلنا سابقاً هو ضحك يشبه البكاء .فمثل هذا النتاج الأدبي يستحق الدراسة والتحليل بنفس القدر مع الأدب الجاد لسبب بسيط ألا وهو أن هذا الأدب يمثل الإنسان في جميع حالاته ، بل قد يكون أصدق في تمثيله للحالات الإنسانية من أي أدب آخر .

هذا من جانب ، أما الجانب الآخر فإن الغزارة في النّتاج في مجال السخرية يتطلب من الدارسين زيادة اهتمام بهذا النوع الأدبي الذي يبدو من الاستقراء البسيط أنه أصبح ظاهرة أدبية في أغلب كتابات المبدعين من عبدالعزيز البشري و طه حسين مرورا بعبدالله النديم وصولا إلى عبدالله البردّوني ، مما يتطلب منا الوقوف على أسرار هذه الظاهرة ، وبيان الميزة التي اكتسبها المبدعون بطرقهم هذا المجال .

يقول الدكتور فتحي محمد عوض : "فهذه دراسة عن الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث حاولت بما أتيح لي أن أكشف عنها القناع ، وقد وقع اختياري على هذا الموضوع – على الرغم من وعورة المسالك إليه واكتئاد السبل فيه ، لأنني

رأيت أنه لون جديد من الدراسة فضلاً عن أنه مهضوم مظلوم لم يتطلع إلى آفاقه إلا نفر قلائل ، اختطوا لأنفسهم منهجاً بعيداً عن الموضوعية " .[1]

ولا شك فإن السخرية هي نوع من نتاج أدب الفكاهة . هذا الأدب الذي لم يحظ باهتمام الدارسين مع كونه ظاهرة فنية لا يكاد يخلو منها أدب مُبدع .

هذا من جانب أما من ناحية أخرى فإن الدراسة سوف تتناول بالبحث قطرا عربيا عزيزا أهملته أغلب الدراسات العربية ، إن لم نقل إنها تناسته وشغلت عنه ويعود هذا إلى أحد أمرين أولهما : جهل الكثير بما يدور في اليمن من فكر وثقافة والنظر إلى الحركة الأدبية في اليمن بعين الاقتصاد ، فما يعيشه اليمن من فقر لا يسمح بقيام حركة أدبية يمنيّة ، وهذا خطأ كبير فإن كان اقتصاد اليمن سجل تراجعاً فإن أدبه سجل حضوراً بارزاً على مدى تاريخ هذا القطر .

أما الطرف الآخر فهم يعلمون بوجود مثل هذه الحركة الأدبية لكن لا يؤمنون بجدوى الدراسات التي تتناول الأدب في اليمن فهي أقل من أن تساوي الجهد الذي يبذل فيها ، أو نور العين الذي يفقد من أجلها . وللإجابة على كل من الطرفين يقول هلال ناجي : " ما رأيته من إهمال الباحثين والدارسين للشعر في اليمن الكبرى التي هي في رأيي مهد العرب الحقيقي ، ودراسة الشعر فيها تمثل حلقة مهمة من حلقات الدراسات الشعرية العربية المعاصرة حتى معهد الدارسات العربية العليا الذي دعا العلماء والمفكرين ليحاضروا عن الحركة الشعرية في أوطانهم ، وطبع هذه المحاضرات في كتب مشهورة معروفة قد نسي أو تناسى هذا الجزء الغالي من الوطن العربي وربما

---

[1] **الفكاهة في الأدب العربي ، محمد أمين فرشوخ ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، ١٩٨٣ م ، ص ١٠**

كان رأي المسؤولين عنه كرأي من سألني ذات يوم : هل ثمة شعر وشعراء في اليمن" .[1]

إذاً ناجي هنا يؤكد غياب الدراسات العربية عن الأدب اليمني ، بل وتجاهله مع ما فيه من جدة وتميز يضاهي الحركة الأدبية في كثير من البلدان العربية.

أما من ناحية ثالثة فإن هذه الدارسة تكتسب أهمية من خلال تسليط الضوء على أدب شاعر يمني مميّز، استطاع أن يأسر بأدبه القلوب ، ويفجر ينابيع إبداعات ملؤها التألق والنبوغ . إنه شاعر اليمن، ويمني الشاعرية ، إنه عبدالله البردّوني ، شاعر لم تمنعه ظروفه من أن يتقدم على كثير من المبدعين الذين لم يخوضوا تجربة الحرمان والظروف القاسية التي عاناها البردّوني ليكون حقاً مبدع المعاناة. يقول عنه هلال ناجي " شاعر محروم حرمه القدر نعمة البصر وحرمه الهرم الاجتماعي أن يعيش مرفهاً بل حتم عليه أن يتجرع غصص الفقر مع أولاد الفلاحين من أقرانه ، وحرمه – قدر الله [2] – القلب المغرم والكبد العاشقة، وحرمه الموت من أمه ففقد بفقدها اليد الحانية والفؤاد العطوف"[3]ومع كل هذه المعاناة نجده يتألق إبداعاً ، ويتخذ من هذه المصاعب سلماً يرتقي به إلى ذرى المجد والعز ، فشاعر بمنزلة البردّوني شاعر يستحق أن تتناوله الدراسات ، بل يستحق من الباحثين الوقوف مع كل صغيرة وكبيرة في حياته ، وفي إبداعه . فالإهمال الذي تعرض له هذا المبدع في جانب تجربته الإبداعية من قبل الدارسين كان محركاً لي في دراستي التي خصصتها للوقوف مع

---

[1] شعراء اليمن المعاصرون ، هلال ناجي ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٠
[2] في النص الأصلي (إله الحب)
[3] المرجع السابق ص ٧٢

أدب هذا الإنسان الفذ الذي رسم بنفسه الشفافة إبداعا ، وصبغ قلمه المبدع بأحاسيسه المتوجعة .

هذا الإهمال الذي يقول خالد الرويشان عنه "إن ما يحزن حقاً أن الضوء لم يلق بما فيه الكفاية على تجربته الإبداعية " .[١]

ولم يقتصر الإهمال على تجربته الإبداعية ، بل شمل الإهمال أيضاً تجربته الوجدانية والإنسانية ، يقول الرويشان

"وإذا كانت التجربة الإبداعية للبردّوني لم تلق اهتماماً كافياً أو حتى عادياً – وإذا كان ذلك محزناً – وهو محزن بحق – فإن تجربته الإنسانية الفريدة وهي تعانق تجربته الإبداعية لم تلق اهتماماً من أي نوع على الإطلاق " [٢] إن هذا الإهمال قاد البحث ليقف مع هذه التجربة ليستخلص من معينها أصدق المشاعر ، ويرحل مع إبداعاتها إلى أرحب العوالم .

[١] ديوان البردوني الأعمال الشعرية ، إصدارات الهيئة العامة للكتاب ـ صنعاء ١٤٢٣ هـ ط ١ ، ص١٣ .

[٢] المرجع السابق ص ١٣

ب / (حياة البردّوني).

١- اسمه ونسبه :

هو عبدالله بن صالحبن عبدالله بن حسن الشحر البردّوني ، أبوه صالح بن عبدالله بن حسن الشحر البردّوني ، من قبيلة بني حسن من بني شُحَيف ، فلاح بسيط ، لا يعرف إلا الحياة الريفيّة ، وما يعتريها من هموم ، ومصاعب ، جلّ ما يسعى له في حياته تأمين لقمة العيش الشريفة لأهل بيته. وأمه هي نَخلة بنت أحمد عامر من قبيلة بني حسن أيضا ، كانت فلاحة بسيطة ، تهتم بتدبير أمور منزلها ، كما تساعد زوجها في أعمال مزرعته ، صاحبة شخصية قوية ، دفعتها إلى مشاركة الرجال في بعض أمور الحياة ، من كسب ، وصراعات قبلية. يقول الحارث بن الفضل الشميريواصفاً لها : " كانت ذكية ، فلاحة ، لا تقف عن العمل ، وكانت نصف حارثة ، ونصف ربة بيت ولدت لعم البردّوني عبد ر به ابنتين وولدا بخيتة ، وظبية ، وعبدالله ، واستخلفها أبو شاعرنا بعد موت أخيه ، فأنجبت له ثلاثة أبناء أحمد ، وعبدالله ، والثالث مات في شهر ميلاده ، ولعل السبب أن ميلاده كان بعد سن الحمل ، وقد تعمرت أكثر من تسعين سنة ، وهي حاطبة كالرجال ، وسارية الليل كالرجال ، تشارك في الفتن المحلية مع قبيلتها وكانت شديدة على شاعرنا في صغره ، لكونه يطلب ما لا تمكنها المحاصيل منه " [1]. من خلال هذه الصفات التي كانت تتمتع بها أمه ، يتضح كبيرة الأثر العظيم الذي تركته شخصية أمه عليه ، وكيف أنها كانت الراسم الحقيقي

[1] ديوان عبدالله البردوني ، ص (٢٣ ، ٢٤)

لشخصيّة البردّوني ، كما يتضح ذلك الألم الكبير ، والفراغ الهائل الذي سببه فقدها ، وتلك المسحة الحزينة التي ارتسمت على صفحات كتاباته بعد فقدانها.من خلال هذه الجولة السريعة على عائلة البردوني ، نقف على أنه ينتمي لعائلة يمنيّة بسيطة ،فأبواه فلاحان ، وقبيلته يعتصرها الفقر ، وتجتاحها الصراعات القبلية ، كباقي القبائل ، كما أن أمه كان لها الدور الكبير في صقل شخصيّة البردّوني لما كانت تتمتع به من صفات جعل لها الأثر الكبير والواضح في بناء شخصيّة شاعرنا فيما بعد .

٢ـ المولد والنشأة :

ولد البردّوني في قرية صغيرة أسمها البَرَدّون ،من أعمال مركز الحَدّا التابع لمحافظة صنعاء . وقد اختلف في تحديد وقت ولادته ، فقد ذهب الدكتور وليد المشوح إلى أنه ولد في عام ١٩٢٩ م [١] ، بينما يذهب الدكتور محمد أحمد القضاة إلى أنه ولد عام ١٩٢٥ م[٢]، أما الحارث بن الفضيل الشميري فقد أرجع ولادته إلى ١٩٢٩ م أو ١٩٣٠ م[٣] ، وقد برر هذا التحديد بقوله : " تاريخ ميلاد شاعرنا يمكن تقديره بعام ١٩٢٩م ، أو ١٩٣٠ م . لا أزيد ولا أقل ، وهذا التقدير القائم على أحداث مثل ضرب الشمال بالطائرات البريطانية عام ١٩٢٨ م ، وغرق (أحمد البدر) ابن الإمام (يحيى) .[٤] وهذا التحديد أقرب إلى القبول ، لأنه التاريخ الوحيد الذي استدل صاحبه بأحداث تاريخية يمكن قبولها ، وأن تكون شاهداً على مولد البردّوني ، ومع هذا فإن الجزم بتاريخ بعينه أمر لا يمكن تحقيقه ، لأنه حتى هذه الشواهد التي ذكرت ، هي أمور تاريخية ، وأحداث تهم اليمنيين بكل فئاتهم ، فلا غرابة أن نجد جل الشعب يتحدث عنها ، إما عن مشاهدة ، أو نقل عمّن عاصرها .

نشأ البردّوني في عائلة فقيرة ، جلّ ما يشغلها هو تأمين لقمة العيش الكريمة، ومصارعة الحياة القاسية ، للوصول إلى تربية الأبناء وتأمين القدر الكافي مما يسد رمقهم ، وحاجياتهم الأساسية . وفي حديث والدته عندما سئلت عن مولد البردّوني

---

[١] الصورة الشعرية عند عبدالله البردوني ، وليد المشوح ، كتاب الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، ٢٠٠٠ م / ص ٢٠

[٢] شعر عبدالله البردوني ، محمد القضاة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٧ م ، ط١ / ص ٢٧

[٣] ديوان عبدالله البردّوني / ص ٢٤

[٤] نفس المرجع السابق / ص ٢

فقالت : " أصبنا ثلاث مرات ، لم ينزل المطر ، مات الجمل، ولد عبدالله " [١]،من خلال هذه الألفاظ نقف على حجم المعاناة التي كانت تثقل كاهل هذه الأسرة ، فقد نزلت بهم ثلاث مصائب متتالية ، لم ينزل المطر ، الذي تقوم عليه حياتهم الزراعية،والذي يعد أكبر هدية من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الفقراء ، ليتمكنوا من تأمين حياتهم من خلال ما ينتجونه من أراضيهم ، فإن أجدبت السماء ، وعمّ القحط فهو عام شدّة وكرب ، والمصيبة الثانية هي فقد الجمل ، المعين الثاني بعد الله ثم الأرض على تحمل نوائب الزمان ، ثم تأتي المصيبة الثالثة ، وهي ولادة عبدالله لينضم إلى الأسرة هم جديد ، فهذا يعطيك مؤشراَ حقيقياَ لما كانت تعيشه الأسرة من حالة فقر ، حيث يعد المولود مصيبة تزيد الهموم هما جديدا .

إذاً ولد عبدالله " لينضمّ إلى قافلة الأطفال البؤساء من أقرانه "[٢]، لكن القدر لم يترك البردّوني يعيش حتى حالة الفقر بسعادة ، إن كان فيها شيء من السعادة ، بل نجده ينغص حياته المنغصة ببلاء جديد ، لقد فقد شاعرنا بصره في زيارة من زيارات مرض الجدري المتعددة لليمن ، والتي كان يحصد خلالها العديد من أرواح أبناء اليمن ومن ينجو من الموت لا بد أن يترك له الجدري أثراَ يذكّره به ، وكان نصيب شاعرنا من هذه الزيارة ، أن خلد الجدري ذكراه على عيني البردوني ، ليسلبه حبيبته ، ويجعلها ذكرى مريرة قاسية عاش معها البردوني تجربة حرمان جديدة ، أضيفت إلى تجربته الأولى مع الفقر ، فلم يعش شاعرنا جمال الطفولة ، وأحلامها ، وإنما عاش هموم الفقر ، والعمى كما يصف هو هذه المعاناة قائلا : " للطفولة في حياة كل إنسان

[١] الصورة الشعرية عند عبدالله البردوني / ص ٢٠
[٢] المرجع السابق / ص ٢٠

ذكرى جميلة ولكنها بالنسبة لي كانت مرّة ، وقاسية ، لأنني حملت مصيبة العمى وأنا في ريعان الطفولة " [1] ، ولا نستغرب من البردّوني وصفه للعمى بالمصيبة ، لأنه حقيقة مصيبة ، فالمجتمع القبلي الذي يعيش فيه البردوني ، وتقاليد هذا المجتمع وما فيه من صراعات ، وثارات ، يحتاج فيها الأب إلى ولد سليم يكون عونا لأبيه على نوائب الزمان، ولكن ماذا يصنع هذا الأب بهذا الابن ؟ وماذا يستفيد منه ؟ فهو في حاجة إلى من يعينه ، ويأخذ بيده ليسير في مجتمع لا يرحم الأسوياء فكيف بمن هذا حاله، لذلك كان بحق " حادث العمى مأتما صاخبا في بيوت الأسرة ، لأن ريفه يعتد بالرجل السليم من العاهات ، فرجاله رجال نزاع وخصام فيما بينهم ، فكل قبيلة محتاجة إلى رجل القراع ، والصراع الذي يقود الغارة ويصد المغير " [2] ، الكل ظن أن حياة هذا الطفل قد انتهت ، وأسلمه قدره إلى هاوية الهلاك ، فهو سيعيشكلاًّ على أسرته ، إلى أن يقضي الله أمراً من عنده ، لكن البردّوني رفض هذا الواقع، بل وتحداه بكل إرادة وعزيمة ، وقرر ان يعيش حياته كأي فرد سوي ، أراد البردوني كسر قاعدة الإعاقة التي حاصره بها المجتمع ، ليثبت للمجتمع أن قيمة المرء ليست في اكتمال خلقته الجسدية ، وخلوه من كل الإعاقات ، ،إنما بما يمتلكه من إرادة ، وما يقدمه من خدمة لمجتمعه،وما يشع منه من فكر وعلم . يقول واصفا هذه المرحلة " أذكر أنني كنت أروح إلى هذه المعلامة[3] ،وأعود منها كل يوم وقد تملكني الخوف من المواشي الكثيرة، والأبقار الناطحة ، كنت في ذلك الوقت لا أعترف بأني أعمى

[1] المرجع السابق / ص ٢١

[2] شعر عبدالله البردوني / ص ٢٧

[3] ما يسمى بالكتّاب .

على الإطلاق، فرحت أرتطم في صخرة ، وأسقط في هوة ، وأقوم من عثرتي ، ومع هذا احاول أن أركض كلصّبيان ، وألعب ، وأجاري المبصرين من أترابي ، أو من أبناء جيلي في المدرسة ، أوفي الشارع ....

وهكذا تجاوزت العمى على الرغم مما كنت ألاقي من أوجاع في القدمين ، أو من كدمات في الرأس أو من شروخ في الجبهة " [١]

تجاوز البردّوني محنته بما يمتلكه من إرادة ، وتصميم على الحياة ، فتلك المحاولات لمنافسة أقرانه لم تكن في الحقيقة إلا محاولة إثبات لنّفس أنه قادر، وتلك التحديات للأقران لم تكن حقيقتها إلا تحدي النفس ، وإثباته لها بأنه يستطيع أن يكون كغيره ، وتلك النطحات لصخور لم تكن في جوهرها إلا تصميماً ، وإرادة لكسر كلّ ما يحيط به من تصخر في العقول ، وتجلّد في الآراء ، والأفكار القبلية ، هكذا أراد أن يقول البردّوني لمجتمعه مع كل سقطة كان يعاني ألمها ، وهكذا أراد البردّوني أن ينظر إليه أفراد قبيلته ، فرد فاعل في بناء مجتمعه ، وليس إنساناً يُرمق بعين الرأفة،والرحمة .

قال لهم : إن الإرادة الحقة لا يقف أمامها أي عائق ، وإنّ الإنسان يستطيع بإرادته كسر كل ما يواجهه في الحياة ، فلا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة .

[١] الصورة الشعرية عند عبدالله البردوني / ص ٢

رحلته العلمية :

بدأ البردّوني رحلته العلمية في قريته البرّون ، حيث استهلّها بتعلم القراءة والكتابةوحفظ القرآن في المَعْلامَة على يد الشيخ (يحيى حسين القاضي)، ثم أنتقل بعد ذلك إلى قرية المحلّة في ناحية عنس جنوبي شرقي ذمار ، وأكمل فيها حفظ القرآن ، ويقول عن هذه المرحلة : " ثم انتقلت إلى قرية أخرى من منطقة مجاورة اسمها قرية (المحلّة)وهي من قرى(عئس)[1]وأنهيت فيها التعليم الابتدائي ، وهو عبارة عن حفظ الأناشيد ، وحفظ القرآن عن ظهر قلب . " [2] يدل حديثه هذا على أن الفترة الثانية من حياته العلمية تمتاز عن الأولى بأنها كانت نظامية ، لأنه ذكر فيها أنه أنهى فيها الدراسة الابتدائية ، كما أنها كانت دراسة مقننه ، يجتازها الطالب بعد اجتياز مقررات محددة ، وقد ورد تحديد لبعض هذه المقررات في حديثه ، عندما أشار إلى الأناشيد ، وحفظ القرآن ، ثم انتقل بعدها إلى مدينة ذمار ليلتحق بالمدرسة الشمسية [3] والتي أكمل فيها دراسة العلوم الشرعية ، من علوم فقه وأصول الدين ، والتفسير ، وعلوم اللغة العربية ، من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وقد كان لما تلقاه في هذه المدرسة أثر كبير على حياته العلمية بعد ذلك ، حيث استفاد فائدة كبيرة من هذه العلوم في أيامه المستقبلية ، لكن في هذه الأثناء حصل حادث كاد يطوح بحياة شاعرنا ، ففي عام ١٩٤٩ م حدث انقلاب فاشل سجن البردّوني على إثره تسعة أشهر خرج بعدها لمواصلة مسيرته العلمية ، لكن هذه المرة أراد وجهة أكثر ألقا ، ومدينة

[1] هكذا وردت في المصدر .
[2] الصورة الشعرية عند عبدالله البردوني / ص ٢٢
[3] عبارة عن جامع وسم باسم الإمام شمس الدين بن شرف الدين .

يجد فيها نفسه بجوار الأدباء والعلماء لينهل من مورد صاف، ويقتبس من فكر وقاد ، فيمم وجهه هذه المرة تجاه صنعاء ، ليلتحق بدار العلوم ، وفي صنعاء وجد مبتغاه فقد شعر عند وصوله إليها ، ودراسته فيها " أن صنعاء مختلفة بأهلها ، وبحياة العلم فيها والمجالس الثقافية وفرص اللقاء بين المثقفين والمؤرخين والكتّاب والشعراء ، وكانت زاخرة بالشعر والشعراء ، فيمكن أن أقول إن بدايتي الحقيقية مع الشعر كانت من مدينة صنعاء منذ عام ١٩٤٩م وحتى الآن ... " [١] يكشف في هذا الحديث ما وجده من تغير في حياة صنعاء لم يكن يجده في مسيرته الأولى لذلك كان بزوغ نجمه في هذه الأيام، وفي دار العلوم أكمل البردّوني مسيرته العلمية ليتخرج من شعبة تسمى (ما هي الغاية ؟) ويقصدون بالغاية هي إتمام اثني عشر عاما من الدراسة المتواصلة كان يدرس فيها الطالب القرآن والتفسير وعلم البلاغة وعلم النحو و علم الصرف [٢] ليتخرج منها عام ١٩٥١ م .

لقد استطاع البردّوني أن يكمل دراسته وأن ينال هذه الدرجة العلمية ، ويتفوق على أقرانه،ويجتاز كما قلنا سابقا مرحلة العجز ، ليثبت للجميع أنه قادر على صنع الذات، وأن الإرادة الصادقة طريق النجاح والتفوق ، والإبداع ، لقد ضرب البردوني مثالا حيا في التصميم ، والعزيمة يُحْتَذَى به فكان حقا رمزا في الصبر و المثابرة للوصول إلى الهدف والغاية ، لقد وصل الى غاية نفسه قبل أن يصل إلى ما هي الغاية ؟ لقد أعاد إكمال بناء روحه قبل أن يكمل دراسته ، لقد ولد البردوني ولادة حقيقية عام ١٩٥١ م . وعن هذه الرحلة العلمية يقول البردوني : "دخلت كتّاب القرية وكان

---

[١] الصورة الشعرية عند عبدالله البردوني / ص ٢٣

[٢] نفس المرجع / ص ٢٣

يسمى مَعْلامـَة حيث حفظت النصف الأخير من القرآن،ثم انتقلت إلى القرية المجاورة، فأكملت فيها حفظ القرآن،وكانت الدراسة فيها أكثر انتظاما من مَعلامة البردّون،وعندما انتقل معلمي الشيخ محمد الصوفي إلى مدينة ذمار، نقلني معه متحملا مسؤولية تعليمي ، دون أن يتحمل مسؤولية عيشي ، ثم انتقلت إلى جامع المدرسة الشمسية ، وفيه قطعت شوطا في دراسة النحو والفقه ، وأصول الدين ، وعلوم البلاغة ، والصرف ، ثم التحقت بدار العلوم سنة ١٩٤٩ م ، وتخرجت منها سنة ١٩٥١ م " [١]

الأعمال التي شغلها البردّوني :

تخرج البردّوني ليبدأ مسيرة حياة علمية وعملية فهذا الأعمى لم يتخرج ليبقى قعيدا في بيته ، بل ليشارك في مسيرة بناء بلده فكريا وعلميا ، فقد عمل محاميا ، وقاضيا ، ثم أستاذا للأدب العربي في دار العلوم ثم رئيسا لاتحاد الأدباء في اليمن ، كما عمل موظفا في إذاعة صنعاء .

نتاج البردّوني الإبداعي شعرا ونثرا :

لم يقتصر نتاج البردّوني على الشعر فقط وإنما خاض غمار التجربتين الشعرية والنثرية ، إلا أنه اشتهر في تجربته الشعرية أكثر من النثرية ، لذلك سنقسم نتاج البردّوني إلى قسمين :

أ /الذّنتاج الشعري :

فقد صدر لشاعرنا اثنا عشر ديوان شعر هي :

[١] شعر عبدالله البردوني / ص ٢٨

١ ـ من أرض بلقيس .

٢ ـ في طريق الفجر .

٣ ـ مدينة الغد .

٤ ـ لعيني أم بلقيس .

٥ ـ السفر إلى الأيام الخضر .

٦ ـ وجوه دخانيّة في مرايا الليل .

٧ ـ زمان لا نوعية .

٨ ـ ترجمة رملية لأعراس الغبار .

٩ ـ كائنات الشوق الآخر.

١٠ ـ رواغ المصابيح .

١١ـ جوّاب العصور .

١٢ ـ رجعة الحكيم زيد .[1]

وقد جمعت هذه الدواوين كاملة في عمل تكفلت به الهيئة العامة للكتاب بصنعاء تحت عنوان (ديوان عبدالله البردّوني الأعمال الشعرية) وذلك في مجلدين .

ب / النّتاج النثري : لقد تنوع نتاج عبدالله البردّوني النثري ، فمن دراسات تقوم حول الشعر ، إلى دراسات تهتم بالسياسة ، إلى دراسات متنوعة في علوم متفرقة ، وأبرز هذه الأعمال هي :

[1] ديوان عبدالله البردوني / ص ٢٦ ـ ٢٧

١ ـ رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه .

٢ ـ قضايا يمنية .

٣ ـ فنون الأدب الشعبي في اليمن .

٤ ـ اليمن الجمهوري .

٥ ـ الثقافة الشعبية (تجارب وأقاويل يمنية) .

٦ ـ الثقافة والثورة .

٧ ـ من أول قصيدة إلى آخر طلقة (دراسة في شعر الزبيري وحياته) .

٨ ـ أشتات . [1]

وفاته :

توقف قلب البردّوني النابض بالحياة في الساعة الحادية عشرة صباحا ، من يوم الاثنين،الموافق للثلاثين من شهر أغسطس،سنة ١٩٩٩م .الموافق ١٨ /٥ / ١٤٢٠ هـ
عاش البردّوني فيها حياة فكر وأدب ، وكان بحق شمعة أضاءت في دياجير اليمن في عصوره السوداوية ، وكان رمزا للأديب المكافح ، والشاعر المناضل ، الذي قدم نفسه فداء لوطنه .

[1] نفس المرجع / ص ٢٧


الفصل الأول

الفصل الأول

المبحث الأول / معنى السخرية :

١ ـ السخرية في اللغة :

قبل أن نتجه إلى المعنى الاصطلاحي لكلمة السخرية ، كان من الضروري الوقوف على معناها في اللغة ، حيث ذكر الزمخشري في باب سخر:" سَخَرفلان سُخْرَةٌ سُخَرَةٌ يضحك منه الناس ويضحك منهم ، وسخِرتُ منه واستسخرتُ ، و اتخذوه سُخْرِيّا ، وهو مَسْخَرة من المَساخر ، وتقول رُبّ مَساخِرَ يعدها الناس مفاخر .

وسخّرَه الله لك ، وهؤلاء سُخْرَةٌ للسلطان يَتَسَخّرُهم : يستعملهم بغير أجر .

ومن المجاز : مواخر سواخر : سفن طابت لها الريح . ويقولون : أنا أقول هذا ولا أسخرُ أي ولا أقول ماهو حقّ ، قال الرّاعي :

تغير قومي ولا أسخر وما حُمّ من قدر يُقدرُ "[1]

وورد في لسان العرب:" سخِرمنه و به سَخْراً و سَخَراً ومَسْخَراً و سُخْراً ، بالضم ، وسُخْرةً و سِخْرِيّا و سُخْرِيّا و سُخْريّة : هزىء به ، ويروى بيت أعشى باهلة على وجهين :

إني أتتني لسان ، لا أسر بها من علو ، لا عجب منها ولا سُخْرُ

ويروى: ولا سَخَرُ ، قال ذلك لما بلغه خبر مقتل أخيه المنتشر ، والتأنيث للكلمة . قال الأزهري : وقد يكون نعتا كقولهم : هم لك سُخْرِيٌّ وسُخْرِيّةٌ ، من ذكّر قال سخريا ،

---

[1] أساس البلاغة / مادة السين مع الخاء / ص ٣٦٥

ومن أنّث قال سخرية . الفراء يقال سَخِرتُ منه ، و لا يقال سَخِرْت به. قال تعالى : لا يَسْخَرْ قوم من قوم . وسَخِرْتُ من فلان هي اللغة الفصيحة . وقال تعالى : فيَسْخَرُون منهم سَخِرَ الله منهم ، وقال إن تَسْخَرُوا منّا فإنا نَسْخَرُ منكم ، وقال الراعي:

تغير قومي ولا أسْخَرُ وما حُمّ من قدر يُقدر

قوله أسخر أي لا أسخر منهم . وفي اللسان وقال بعضهم : لو سخرت من راضع لخشيت أن يجوز بي فعله . الجوهري : حكى أبو زيد سَخِرْتُ به ، وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش سَخِرْت منه و سَخِرْت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزئت منه ، وهزئت به ، كلّ يقال ، والاسم السُخْرِيَّة والسُخْرِيُّ والسِّخْرِيُّ ، و قرىء بهما قوله تعالى : ليتخذ بعضهم بعضا سُخْريّا . وفي الحديث : أتسخر مني وأنا الملك أي أتستهزيْ بي ، وإطلاق ظاهره على الله لا يجوز ، وإنما هو مجاز بمعنى : أتضعني فيما لا أراه من حقي ؟ فكأنها صورة السخرية . وقوله تعالى : وإذا رأوا آية يستسخرون ، قال ابن الرماني : معناه يدعو بعضهم بعضا إلى أن يسخر ، كيسخرون ، كعلا قرنه واستعلاه. وقوله تعالى : يستسخرون ، أي يسخرون ويستهزئون ، كما تقول : عجب وتعجب واستعجب بمعنى واحد .

والسُّخْرة : الضحكة. ورجل سُخَرَة : يسخر بالناس،وفي التهذيب : يسخر من الناس . وسُخْرَة يُسخر منه ، وكذلك سُخْرِيّ وسُخْريّة ، من ذكّر كسر السين ، ومن أنثه ضمها ، وقرىء بهما قوله تعالى : ليتخذ بعضهم بعضا سخريا .

والسُخْرَةمَا تَسَخّرَت من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن . ويقالسَخَرْتُه بمعنى سَخّرْته أي قهرته وذللته . قال الله تعالى : وسخر لكم الشمس والقمر، أي ذللهما ، والشمس و القمر مسخرات ، قال الأزهري: جاريات مجاريهنوسَخّرَه تسخيرا : كلفه عملا بلا أجره ، وكذلك تَسخّره يُسخّره سِخْريا وسُخْريا وسَخَرَه : كلفه ما لا يريد وقهره . وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر ، فذلك مسخّر.وقوله عزّ وجلّ :ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض ، وقال الزجاج : تسخير ما في السموات تسخير الشمس و القمر و النجوم للآدميين ، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم و الاقتداء بها في مسالكهم ، وتسخير ما في الأرض تسخير بحارها وأنهارها و دوابها وجميع منافعها ، وهو سُخْرة لي وسُخْريّ و سِخريّ، وقيل :السُّخريّ بالضم ، من التسخير والسخري بالكسر ، من الهُزء . وقد يقال في الهزء سُخري و سِخري ، وأما من السُّخرة فواحده مضموم . وقوله تعالى :فاتخذتموهم سُخريا حتى أنسوكم ذكري ، فهو سُخريا و سِخريا ، والضم أجود .

أبو زيد :سِخريّا من سَخِر إذا استهزأ ، والذي في الزخرف : ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا ، عبيدا وإماء وأُجراء . وقال : خادم سُخرةورجل سُخرة أيضا : يُسخر منه ، وسُخرة ، بفتح الخاء ، يسخر من الناس .وتسخّرت دابة لفلان أي ركبتها بغير أجر

وأنشد : سواخر في سواء اليمّ تحتفز

ويقالسَخَرْته بمعنى سَخّرْته أي قهرته .ورجل سُخرَة يُسَخّرُ في الأعمال ويَتَسَخّره من قهره .وسَخَرت السفينة : أطاعت وجرت وطاب لها السير ، والله

سخرها تسخيرا.والتسخير : التذليل . وسفن سواخر إذا أطاعت وطاب لها الريح . وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد ، فقد سُخر لك . [١]

وفي نفس المعنى دار صاحب التاج ، فجل مادة (س ، خ ، ر) تدور على معنى الضحك والتندر ، والهُزء ، والعجب من الآخر . [٢]

من خلال هذه الجولة البسيطة في المعاجم ، يتضح أن دوران كلمة السخريّة في جميع معانيها يرجع إلى الاستهانة ، والاستهزاء والانتقاص من القدر . حتى عندما لا تعطي الكلمة المعنى مباشرة فإننا نجده يكون ضمنا في أي معنى تدخله(س ، خ ،ر)، فلو رجعنا إلى معنى التسخير في قوله تعالى (ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض)[٣] نجد أنه ذكر أن معناها هو تذليل ما في السموات وما في الأرض ، وإخضاعه للإنسان ليكون تحت تصرفه ، وفي خدمته ، وعندها نجد أن معنى التذليل و التحقير يطل برأسه من خلال مفردات هذه الكلمة ولو من مكان بعيد . وهذا ما يشير إليه ابن جني عندما تحدث عن الاشتقاق الصغير قائلا (كأن تأخذ أصلا من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه ، وإن اختلفت صيغه ومبانيه . وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه السلامة في تصرفه) [٤] .إذا فمادة (س خ ر) في دورانها تعطي دلالة واضحة على معنى الانتقاص والاحتقار والذلة .

---

[١] لسان العرب / المجلد الخامس / ص ٢٠٢ / ٢٠٣

[٢] انظر تاج العروس من جوهر القاموس / باب س خ ر / ص الجزء الثالث ص ٢٦٠

[٣] سورة لقمان آية ٢٠.

[٤] الخصائص ، صنعة أبي الفتح عثمان بن جني ، تحقبق محمد انجار ، دار الكتاب الغربي بيروت لبنان ج٢ ص ١٣٤

وهو المعنى المباشر والمتأول لدوران هذه المادة .فإذا كان معنى السخرية يدور حول الاستهزاء والانتقاص والذلة، فما علاقتها بالهجاء؟

إذا عرفنا أن الهجاء هو فن الشتم والسباب [١] أو كما قال قدامة بن جعفر إنّه ضد المديح[٢] وهذا يعني الانتقاص والذم لذلك . وذكر محمد حسين أنّه أدب غنائي يصور عاطفة الغضب ، أو الاحتقار ، والاستهزاء [٣] ويقول قحطان التميمي : إنّه تعداد للمعايب وكشف لبشاعة الرذائل والنّقائض في الفرد والمجتمع [٤] والهجاء غرض من أغراض الشعر فهو قسيم المديح فلا عجب أن يفرد له المؤلفون مكاناً خاصا به ، ويتحدثوا عنه .

والسخرية أداة من أدوات الهجاء ، وذلك لما تسببه من ألم في نفسية المهجو ،فالعلاقة بين السخرية ، والهجاء ، هي علاقة الجزء بالكل ، إذ السخرية لم تكن يوما غرضا شعريا مستقلا عن الهجاء ، إنما هي أسلوب في الأداء الهجائي،تطور بتطور الهجاء ، لأنها أداة من أدواته وجزء منه [٥] ومع أنها جزء من فن الهجاء ، إلا أن لها خصائصها، وطبيعتها ، التي تميزها عن غيرها من فنون الهجاء ، إذا صح التعبير " فالسخرية فن له خصائصه وطبيعته ، إلا أنه لا يخرج عن كونه هجاء "[٦]

فوجب عندها أن تحتاج السخرية إلى " مواهب متعددة ومقدرة فائقة في اختيار الموضوع وصياغته ، وطريقة تقديمه ، وأسلوب المعالجة "[١] وقد فطن ابن رشيق

---

[١] الهجاء والهجاءون في الجاهلية، محمد حسين ، بيروت ، دار النهضة الغربية ، ١٣٨٩ م ، ط٣ ص ٥
[٢] نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ص ٢٩
[٣] الهجاء والهجاءون في الجاهلية / ص ١٦
[٤] اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، بيروت ، دار المسيرة / ص ١٢
[٥] المرجع السابق ص ١٢
[٦] الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ، عباس بيومي ، الإسكندرية ،مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٥ م ط ٣ ص ٢٨٢

لهذا المعنى الدقيق عندما قال : " خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها " [٢] . وهذا يدل على أن صاحبه كان له طريقته المميزة ، وأسلوبه الخاص .

فالسخرية إذا هي السلاح الفاعل للهجاء ، وبدونها يتحول الهجاء من فن وإبداع إلى مجرد تراشق ، وشتم ، وسباب . وهذا ما أكده أبو الحسن الجرجاني عندما قال " فأما الهجو فابلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب،ولصوقه بالنفس ، فأما القذف ، والإفحاش ، فسباب محض ،وليس لشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم " [٣] وقد فطن الشعراء لهذا الأمر الدقيق منذ القدم فمنه قول زهير :

وما أدري وكنت أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبئـــــات فحق لكل محصنة هداء [٤] [٥]

وعلق عليه ابن رشيق بقوله : "وإن هذا عندهم لمن أشد الهجاء وأمضه" [٦] ومنه ما ذكره أيضا ابن رشيق قال : "عندما قدم النابغة الذبياني بعد وقعة حِسْى سأل بني ذبيان ما قلتم لعامر بن الطفيل ، وما قال لكم ؟ فأنشدوه،فقال: أفحشتم على الرجل،وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ، ولكني سأقول ، ثم قال :

فإن يك عامر قد قال جــهلاً فإن مطية الجهل الســـــباب

---

[١] المرجع السابق ص ٢٨٢
[٢] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ص ١٨٩
[٣] الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٠
[٤] العمدة في محاسن الشعر ص ١٩٠
[٥] الهِداءمصدر قولك هَدَى العَرُوسوَهَدَى العروسَ إِلى بَعْلِها هِداء وأَهْداهاواهْتَداها؛ الأَخيرة عن أَبي علي؛ وأَنشد: كذَبْتُمْ وبَيتِ اللهِ لا تَهْتَدُونَها
وقد هُدِيَتْ إِليه؛ قال زهير:
فإِنْ تَكُنِ النِّساءُ مُخَبَّآتٍ فحُقَّ لكلِّ مُحْصِنةٍ هِداء

[٦] العمدة في محاسن الشعر ص ١٩٠

فكن كأبيك أو كأبي بـــراء — تصادفك الحكومة والصواب

فلا يذهب بلبك طائـــشات — من الخيلاء ليس لهن بــاب

فإنك سوف تحلم أو تنــاهى — إذا ما شبت أو شاب الغراب

فإن تكن الفوارس يوم حِسْي — أصابوا من لقائك ما أصابوا

فما إن كان من سبب بعيد — ولكن أدركوك وهم غضــاب

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه، وقال:ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيساً، وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً ، وتهكم بي " [1] .

من هنا يظهر أثر السخرية على النفس فهي أشد ألما ، وأعمق تأثيرا من مجرد كيل الشتائم ، كما أنها تحتاج إلى الفارس الذي يستطيع أن يعلو صهوتها ، وإلى المبدع الّذي يجيد أن يتعامل مع لطائفها ،"فالسخرية فن لا يتقنه ، ولا يجيده إلا الأذكياء البارعون في التعبير عن الكلمة بحذق ولباقة وذكاء ، بينما الهجاء الخالص لا يعوزه التركيز على الكلمات، أواختيار المعاني الناعمة الجارحة في آن واحد ، كما هو الحال في السخرية"[2] لذلك وجدنا أثر قول النابغة على عامر ، ولم نجد نفس الأثر مع ما قاله الآخرون ، مع وصف النابغة له بالفحش ، فمجرد رصف الشتائم، والسباب الكل قادر عليه ، أو لنقل كما سبق لا يكون لشاعر فيه ميزة إلا بإقامة الوزن ، وانتظام القافية ، لأنه إن دققنا فيه ، لا يحتاج إلا إلى نفس دنيئة ، أو موقف منفعل ، لا يضبط المرء فيه نفسه ، فتنهال الكلمات دون وعي ، أو إدراك ، وهذا لا يكون في السخرية

---

[1] المرجع السابق ص ١٩٠

[2] أدبنا الضاحك ، عبد الغني العطري ، دار البشائر للطباعة والنشر ، دمشق ١٤١٢ هـ ، ط٢ ص ١٣١

" لأن الحديث الساخر ينبغي ألا يكون محتدا ثائراً ، وألا يكون سيء اللفظ بذيئا " [١]
في النهاية يقف البحث على أن السخرية هي الأداة الأكثر مضاء من أدوات الهجاء ، والفن الأعلى رسوخا من فنون الهجاء ، لما تترك من أثر عميق ، وما تحدثه من هزة قوية في نفسية المهجو ، مما يجعل أثرها يستمر ، ومفعولها أقوى ، من مجرد كيل السباب والشتائم . إنّ أثر الهجاء مهما كان بالغا فإن أمره إلى زوال ، وهو من عقول الناس في ذهاب كما قال ابن رشيق " فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً ، وقبلته يقيناً في أول وهلة،فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يعرض "[٢] .

[١] اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري / ص ٣٥٦
[٢] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ص ١٩١

٢ ـ الاستعمال الأدبي للسخرية :

للوقوف على الاستعمال الأدبي للسخرية ، ينبغي أولا أن نقف على تعريف لهذا الفن ، ونحن عندما نصفه بأنه فن ، فإننا نقرّ بصعوبة التعريف من أول وهلة ، " لأن الفنون أعمال نابضة بالحياة ، لا يمكن تعريفها ، والإحاطة بها ببعض ألفاظ قاصرة ، إذ الفن حي متحرك ، والألفاظ مهما تكن ، جامدة ساكنة "[١] ، وقد صرح الفيلسوف (آدلر) عند حديثه عن السخرية ، بصعوبة هذا التعريف عندما قال : " ولست مقتنعا إلى اليوم بأي تعريف لها فيما قرأته إلى الآن "[٢]، وعلى غرار هذا المنوال اتجه سليمان الشبانة قائلا: " رغم كثرة استخدام لفظة السخرية ، وجريانها على الألسنة ، وورودها في القرآن الكريم في أكثر من إحدى عشرة آية إلا أنها لم تحظ بتعريف اصطلاحي جامع مانع "[٣] . مع هذا التوضيح لصعوبة الوقوف على تعريف شاف للسخرية ، لا يمنع الأمر من أن نتلمس طريق من حاول أن يجتهد ليقف على تعريف للسخرية ، والذي حاول صاحبه أن يقف من خلاله على حقيقة السخرية ، مثمنين له جهده ، واجتهاده في الوصول إلى المعرفة .وأول ما سنقف عليه ما ورد في كتاب الكشاف في تعريفه عن تفسيره لمعنى الاستهزاء، لأننا في السابق قلنا إنّ من أهم معاني السخرية الاستهزاء ، ومن خلال هذا المنطلق لا ضير أن نتعرف على تفسير الزمخشري للاستهزاء بالمنافقين ، لأنه قد يكون فيه ما ينفع للوقوف على تعريف للسخرية ، من خلال أهم معانيها ، إذ يقول : " فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت معناه

[١] السخرية في الأدب العربي ، نعمان طه ، القاهرة ، دار التوفيق ، ١٣٩٨ هـ ، ط١ ، ص ١٣
[٢] المرجع السابق ص ١٥
[٣] الرسوم الساخرة في الصحافة ، سليمان محمد الشبانة ، الرياض ، شركة العبيكان للطباعة والنشر ص ٩

إنزال الهزء ، والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزرّية ممن يهزأ به ، وإدخال الهوان ، والحقارة عليه . "[1]،والملاحظ على هذا التعريف ، أنه لم يخرج عن المعنى اللغوي لدلالة السخرية ، ولم يرتق إلى مستوى فن السخرية ، إذ إنّ السخرية ليس الهدف منها إظهار الذلة ، والحقارة فقط ، فهي وإن أرادت ذلك ، إلا أنها تتجاوزه إلى فضاء أرحب ، ومجال أوسع من تقيدها بمجرد دلالتها اللغوية . وإذا وقفنا على ما نقله الألوسي عن القرطبي في تعريفه للسخرية نجدها عنده " الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب ، والنقائض ، بوجه يضحك منه ، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل ، والقول ، أو الإشارة ، أو الإيماء ، أو الضحك على كلام المسخور منه ، إذا يخبط فيه ، أو غلط ، أو على صنعته،أو قبح صورته "[2] ، والجديد في هذا التعريف ، هو ربط السخرية بالضحك، حيث إنّها سلاح فعال في النكاية بالمهجو ، والتأثير عليه ، ومع أنها لها هذا الدور الفاعل في السخرية ، إلا أنها أيضا ليست الهدف المنشود من السخرية ، بل قد يكون الهجاء الصريح أشد منها إثارة للضحك ، وقد عرفنا أن السخرية أرقى من الهجاء الصريح ، لذلك يتجه البحث إلى أن الضحك عنصر فاعل في عملية السخرية ، إلا أنه ليس الهدف المنشود ، الذي تسعى السخرية لبلوغه لدى المتلقي وإلا لكان قول الحطيئة يهجو نفسه :

أَبَت شَفَتايَ اليَومَ إِلا تَكَلُّماً بِشَرٍّ فَما أَدري لِمَن أَنا قائِلُه

[1] تفسير الكشاف ، جارالله المخشري ، بيروت ، دار المعرفة . ج ١ ص ٣٥
[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، اللوسي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥ هـ ، ط ٤ ج ١ ص ١٥٢

أَرى لِي وَجهاً شَوَّهَ اللهُ خَلقَهُ فَقُبِّحَ مِن وَجهٍ وَقُبِّحَ حامِلُه[1]

أبلغ من قوله يهجو الزبرقان بن بدر :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

وَابعَث يَساراً إِلى وَفرٍ مُذَمَّمَةٍ وَاِحدُج إِلَيها بِذي عَركَينِ قِنعاسِ[2]

وهذا أمر غير صحيح ، فالكل يعرف ما أثارته هذه الأبيات في نفس الزبرقان ، حتى دفعته إلى أن يشكو الحطيئة لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أما ما قاله في الأول فهو مجرد رصف للكلمات القصد منها إثارة ضحك المتلقي دون هدف آخر. فهو يريد إضحاك من حوله على صورة خلقته القبيحة ، لا يتجاوز هذا المعنى ، بينما نجده في البيتين التاليين يحاول التنقص من رجولة الزبرقان ، مما جعل الهجاء يخرج بصورة أكثر إيلاما من سابقه .

أما عبد الحليم حفني فقد عرفها بقوله : " السخرية أسلوب أو سلاح عدائي، ومهما صغرت درجاتها ، أو كبرت ، ويتميز عن غيره من أساليب العداء ، بأنه مصوغ بروح الفكاهة ، وأسلوبها "[3] ، و المؤلف هنا يصدر حكما فيه بعض الشدة ، فقد جعل السخرية مصدر اعتداء، في كل حالاتها ، صغيرها، وكبيرها ، والبحث يتجه إلى أن في هذا الكلام نوعاً من التجني على السخرية ، فمع الإقرار بأن السخرية ليست بريئة من الاعتداء كل البراءة ، إلا أنّه في الوقت نفسه لا يمكن تعميم القول بأنها مصدر للاعتداء في كل حالاتها ، صغيرها وكبيرها ، كما لا يمكن أن نجعل هذا القول مقياساً

---

[1] ديوان الحطيئة ، شرح حمدو طمّاس ، دار المعارف ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ط٢ ، ص ١١٨
[2] المرجع السابق ص ٨٦
[3] أسلوب السخرية في القرآن ، عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م ، ص ١٥

لكل ما ينتجه الأدب الساخر ، فالسخرية تكون عدائية أحيانا ، وتصحيحية ، وناقدة ، وإصلاحية ، وغير ذلك من الأهداف الراقية لمثل هذا النوع الأدبي ، فلا يمكن أن نخرج السخرية من إطارها الفني ، ثم نؤطّرها في هدف واحد ، ونقول : إنّها لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون غير ذاك .

أما قحطان التميمي فيقول : " السخرية في الشعر طريقة تعبيرية متطورة ، توسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية ، والاجتماعية ، والسير الفردية ، و النيل منها باسلوب يترفع عن الشتيمة ، والسباب المحض ، ويتنزه عن القذف ، والإيغال في الفحش ، ورفث القول "[١] ، ومع أن كل التعريفات السابقة لم تضع اليد على جوهر السخرية، إنما وقف كل مؤلف على عنصر من عناصر السخرية ، ولم نجد تعريفا يكون جامعا مانعا لمفهوم السخرية ، إلا أننا قد نجد في تعريف قحطان تميم بعض الميزات التي يتجه البحث لإثباتها ، والوقوف عليها كأساس في دراسة السخرية ، وذلك عندما جعل قحطان تميم السخرية أداة إصلاح ، يهدف من خلالها الأديب الساخر إلى توجيه أصابع النقد إلى كل من يستحق النقد، ولا يفرق بين كبير ولا صغير، ولكن هذا النقد ليس نقدا تجريحيا ، يهدف من ورائه إلى التندر ، و إبراز العيوب للتشفي فقط ، وإنا هو نقد بناء ، بأسلوب يترفع فيه الأديب عن سطحية العوام، أو تندر الجهّال، ليقول من خلاله،وهذا الموقف نجده ماثلا أمام عين كل أديب، سخر أدبه لخدمة مجتمعه، وجعل من نفسه حارسا أمينا لكل قيم أمته، يقول د/ طه وادي في معرض حديثه عن أدب عبدالله النديم : " وعلى الرغم من تعدد أنواع الكتابة الفنية

[١] اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ص ٣٥٦

عند النديم ، فإنه حرص على أن يوظف كل مجالات الكتابة الأدبية والصحفية من أجل الدعوة إلى تحرير وإصلاح المجتمع ..... والسخرية عند النديم ليست سخرية لفظية ، كما هو الحال في أمثلة السخرية التي تقوم على استخدام التورية ، أو التجنيس اللفظي ، لكن السخرية عند النديم سخرية موقف . " [١]

إذا السخرية عند الأدباء الذين حملوا راية الإصلاح ، والنقد البناء ، ليست سخرية إضحاك أو ابتذال ، بل هي سخرية ترتقي ،وتترفع عن مثل هذه المواقف ، "و لا تقف أهداف السخرية عند إضحاك الآخرين ، أو الترويح عنهم ، أو قطع أوقات فراغهم للتسلية ، فتلك رؤى سطحية مبتذلة ، وهي للسوقة ، والعامة ، لكن السخرية الفنية لها أهداف تربو على ذلك . "[٢] ، من هنا نجد أن السخرية عمل جاد ، حتى وإن ارتبطت بالضحك ، أو إثارة الضحك كعنصر فاعل في تحريك الناس إلى هدف أكبر من مجرد الضحك ، كما أن السخرية ليست هدفاً لذاتها ، وإنما هي وسيلة يسلكها الأديب ليصل إلى هدف أسمى وأنبل من مجرد إثارة الضحك، إنها وسيلة لنصل إلى الضحك الجاد كما وصفه المازني" فالساخر حينما يتناول المضحكات أحيانا،ويمزح، ويسخر ، ويركب الأشياء ، والناس بالهزل ، فإن هزله أبدا مبطن بالجد ، وهو لا يقصد إلى الهزل في ذاته " [٣].

في نهاية هذه الرحلة مع السخرية ، نقف على أهم ما توصل البحث إليه ، وهو أن السخرية أسلوب يهدف إلى الضحك المبطن بنوع من النقد الموجه،الهادف إلى وضع

[١] السخرية في أدب عبدالله النديم ، أحمد يوسف خليفة ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشروق ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٩
[٢] المرجع السابق ص ٢٩
[٣] حصاد الهشيم ، إبراهيم المازني ، القاهرة ، مطابع دار الشعب . ص ٣٠٦

اليد على علة ما،أو تصحيح وضع فاسد، أوتوجيه نحو سبيل سوي ، أو تغيير لحالة اجتماعية ، أو سياسية فاسدة .

وهذا الأمر حقيقة ما يريد البحث أن يصل إليه من خلال الوقوف على التعاريف السابقة لأن الهدف من البحث ليس الوقوف على معنى السخرية ، الذي يحيط بكل جنباتها ، أو التعمق في بيان أنواعها ، ومسمياتها ، لأن تقصي حقيقة السخرية أمر يمكن أن يستغرق بحوثا ، ودراسات طويلة وإنما كان هدفنا أن نقف على أمر نستنير بنوره ، ونستهدي بهداه ، عندما تبحر سفينتنا في موضوع البحث وهو السخرية في شعر عبدالله البردّوني ، فنكون قد وقفنا من خلال هذه التمهيد على معنى للسخرية ، يكشف لنا ما نريد أن نصل إليه في البحث ونحن نفتش عن سخرية البردّوني .إنّنا في هذا البحث لا نفتش عن البردوني اللاهي ، وإنما نكشف عن قناع البردّوني، الثائر ، على كل قيم الظلم الطبقي ، والاجتماعي ، والسياسي . والذي جعل السخرية فنه الراقي ، الذي سلّ ه في وجه كل أعدائه ، وأشهره في كل محفل وطني ، وأدبي .

المبحث الثاني / (دوافع السخرية عند البردّوني)

أي سلوك إنساني لابد أن يكون نتيجة عوامل معينة ، تقوده هذه العوامل تجاه سلوك محدد ، وهو ما يسميه علماء النفس بالدوافع" فيصدر السلوك الإنساني عن دوافع مختلفة بعضها فطري أي يولد الإنسان مزوّدا به والبعض مكتسب من البيئة "[1]،وإذا رجعنا إلى البردّوني لنعرف سبب اتجاهه لأسلوب السخرية،لابد أن يكون هناك دوافع قادته إلى هذا الأسلوب، وقد عرفنا أن أسلوب السخرية ، هو من أرقى أنواع الهجاء ، وقد قرر النقاد أن الغرض الشعري هو نتاج رغبة معينة "قواعد الشعر أربعة الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع "[2] وما هذه الأمور الحاصلة إلا دوافع تقود الشاعر إلى الاتجاه نحو غرض بحد ذاته دون الآخر . يؤكده قول أرطأة بن سهية عندما سأله عبد الملك بن مروان " أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ، ولا أغضب ، ولا أشرب ، ولا أرغب ، وإنما يجيء الشعر عند أحدهن " [3] ومع الوقوف مع حياة البردّوني سنجد أن هناك نوعين من الدوافع كانتا وراء اتخاذه أسلوب السخرية منهجا في شعره ، يمكن أن نسمي الأول دوافع ذاتية، أي أنها ترجع للبردّوني نفسه ، والآخر يمكن تسميته بالدوافع الخارجية ، أي ما أثر في البردّوني من أمور لا ترجع إلى شخصه ، وإنما إلى أسباب اجتماعية ، أو سياسية . وسنبدأ بالدوافع الذاتية لأنها

[1] مبادىء علم النفس ، جمال القاسم ، دار صفاء للطباعة والنشر ٢٠٠١ م ط١ ص ١٣٣
[2] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ص ١٠٨
[3] المرجع السابق ص١٠٩

تعد الأرضية الخصبة التي هيأت البردّوني لأن تغرس فيه بذرة السخرية ، ثم أتت الدوافع الخارجية لتمثل البيئة المناسبة لنمو هذه البذرة ، والحاضن الطبيعي لبروزها كظاهرة شعرية ميزت أسلوب البرّدوني ، كما أن الدوافع الذاتية كانت أسبق وقوعا ، بل هي من أهم مكونات البردوني الشخصية ، فهي لم تؤثر على أسلوب البردّوني وحسب، بل أثرت على مسيرة حياته بشكل عام ، فكان من المنطق أن نبدأ بالدوافع الذاتية أولا ،لأنّها رسخت المبدأ عند البردّوني أولا ، ثم جاءت بقية الدوافع مكملة لهذه الدوافع الداخلية فكانت كأساس البنيان الذي لا يقوم إلا عليه ، ومن ثم سوف نعقب ببقية الدوافع ، والتي أتت لترسم بوضوح تلك الصورة الساخرة في عقلية البردّوني .

أ / الدوافع الذاتية :

١ ـ العمى وأثره على البردوني :

يعرف العمى على أنه " عاهة في البصر إما عن خلقة ولادية ، أوعن مرض يصيب الإنسان نتيجة آفة جسمانية فيفقد نعمة الإبصار " [١]

وذكر صاحب كتاب نكت الهميان في نكت العميان " قد تتبعت أفراد وضع اللغة ، فرأيت العين المهملة والميم ، كيفما وقعتا في الغالب وبعدهما حرف من حروف المعجم،لا يدل المجموع إلا على ما فيه معنى الستر،أو ذهاب الصواب من الرأي " [٢]

ولعلماء الاجتماع عدّة تعاريف للأعمى منها :

١ ـ التعريف التربوي :

" الشخص الذي تقل درجة إبصاره عن ٢٠ على ٢٠٠ في العين الأقوى ، وذلك باستخدام النظارة ، لأن مثل هذا الشخص لا يمكنه الاستفادة من الخبرة التعليمية التي تقدم للعاديين "[٣]

٢ ـ التعريف الاجتماعي : " بأنه الشخص الذي لا يستطيع أن يجد طريقه دون قيادة في بيئة غير معروفة لديه،أو من كانت قدرته على الإبصار عديمة القيمة الاقتصادية، أو من كانت قدرة بصره من الضعف بحيث يعجزعن مراجعة عمله العادي"[٤]

[١] الصورة الشعرية عند البردّوني ص ٢٩
[٢] نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين الصفدي ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠٠ م ، ط ١ ص ١٦
[٣] السلوك الاجتماعي للمعوقين دراسة في الخدمة الاجتماعية ، محمد فهمي ، المكتب الجامعي الحديث،الأزرطية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ م ، ١ص ٧١
[٤] متحدو الإعاقة من منظور الخدمة الاجتماعية ، عبد المحيي صالح ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م ، ص ١٠٣

من خلال ما ذكر نقف على أن العمى ، أو كف البصر هو ذهاب نعمة البصر التي تعد من أجل النعم التي وهبها الله للإنسان ، فذكره بهذا الفضل العظيم في قوله تعالى {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ {٨} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ {٩} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ {١٠} }[1] فذكر سبحانه وتعالى للعينين نعمة يجب على الإنسان أن يشكر الله تعالى عليها ، وقد جاء التصريح بذلك في قوله تعالى:{وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون}[2] كما أنه جعل فقد هذه النعمة بلاء ومحنة فقال تعالى { ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فا ستبقوا الصراط فأنى يبصرون }[3] ، بل إنه تجاوز حد البلاء ليجعل فقد البصر من العقوبات التي يعذب بها الكافرين فقال سبحانه وتعالى : { ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر }[4] . ثم يبين لنا سبحانه وتعالى شرفها عندما يجعلها كناية عن السرور والسعادة في قولة مخاطبا مريم عليها السلام: { فكلي وشربي وقرّي عينا }[5]وفي قوله على لسان عباد الرحمن : { ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين }[6]وقد فضل الله العين على سائر الأعضاء عندما ذكرها بعد النفس النفس مباشرة في القصاص حين قال تعالى:

{ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن }[7] من هنا يتبن ان للعين مكانة عظيمة وهي وسيلة الإبصار الذي من أجله وجد هذا العضو المكانة العالية بين الأعضاء ، لذلك منّ الله على من فقد

[1] سورة البلد آية ٨
[2] سورة النحل آية ٧٨
[3] سورة يس آية ٦٦
[4] سورة القمر آية ٣٧
[5] سورة مريم آية ٢٦
[6] سورة الفرقان آية ٧٤
[7] سورة المائدة آية ٤٥

بصره وصبر على هذه البلوى بإدخاله الجنة مكافأة له على فقد حبيبته ، وثوابا على ما ابتلاه به الله فصبر عليه ، لأن فقد البصر من أعظم الرزايا .

" عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله تعالى قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر ، عوضته منهما الجنّة "[١]، من هذا الحديث يتضح ما للبصر من أهمية حيث جعل الرسول صلى الله عليه وسلم العين حبيبة الإنسان ، ثم جعل الله فقدها من المصائب العظام التي تصيب الإنسان ، فإذا شكر واطمأن كان مستوجبا لرضى الله ودخول الجنة. فبعظم الجائزة يتضح عظم البلاء .إذا فالعمى أو فقد البصر ، أو كف البصر كلها ألفاظ تصب في خانة واحدة، هي أن صاحبها حرم من نعمة من أهم النعم التي وهبها الله للإنسان ، فكل ما يحيط بالإنسان مرتبط بشكل كبير بحاسة البصر ، بل إن شخصية الإنسان تتكون من خلال إدراكه لما يدور حوله في الحياة ، وهذا لا يتأتى إلا بواسطة إدراكه البصري ." إذ تتوقف عليها معظم ما يملك من تمييز وانتباه وإدراك . وتعتبر مقلة العين في تكوينها جزءا من الدماغ تشترك معه في أجزاء خارجية لحفظها ومساعدتها على القيام بوظيفتها ،والعين هي منفذ الدماغ إلى العالم الخارجي ، ونافذة لمعرفة ما يحيط به من عوامل ، وإدراك ما يقابله من تأثيرات خارجية ، فعين الأخصائي الاجتماعي المنتبهة للتغيرات المختلفة على وجه العميل : لها قيمتها في عملية الدراسة والتشخيص والعلاج . وكما أن العين هي منفذ الدماغ إلى الخارج نجدها أيضا منفذا داخليا للجسم،

[١] مختصر صحيح البخاري ،الإمام زين الدين أحمد بن أحمد الزبيدي ط٢ ، دار المؤيد للنشر والتوزيع ١٤٢٣ هـ ص ٥٥٠

فالطب يستخدم فحص قاع العين لارتباطه ببعض الأمراض قبل استفحالها "[1]، وعلى قدر المصيبة تكون المكافأة من الله سبحانه وتعالى لعبده المبتلى ، هذا إذا أردنا أن نبين أهمية البصر بالنسبة للإنسان ، لكن السؤال الذي نبحث عن إجابة له هل يؤثر فقد هذه النعمة في تكوين شخصية الفرد المعاق . وهل يكون له أثار جانبية تتدخل في بناء شخصية الفرد،وتكون نمط سلوكه ؟. هذا ما يسعى البحث للوصول إليه من خلال هذا المبحث ."من المؤكد أن الإعاقة تؤثر على المستوى الفردي بمظاهر سيكولوجية متعددة تجعل من المعاق فردا في حالة معنوية سيئة ، نتيجة إحساسه بإعاقته دون الآخرين " [2]

إذاً فالإعاقة تؤثر على شخصية المعاق، فكيف إذا كانت هذه الإعاقة هي فقد البصر، لابد أن يكون أثرها على نفس المعاق أكثر وضوحا ، وهذا الكلام لا يعني أن المعاق لا يستطيع أن يتفوق على إعاقته ، بل قد يستطيع أن ينافس الأصحاء ، و في التاريخ شواهد كثيرة تثبت أن المعاق ، وبتحديد المعاق إعاقة بصرية ، أو ما يسمى بالأعمى،قد تفوق على أقرانه ، وبزهم، وما بشار بن برد ، و أبو العلا المعري ، وطه حسين إلا أمثلة شاهدة على هذا التميز ، فالإعاقة ليست إلا حجر عثرة في طريق الإنسان يستطيع بإرادته أن يتفوق عليها . ومع قدرته على التأقلم مع هذه المصيبة ، إلا أننا لابد أن نُقرّ بحقيقة أن للإعاقة آثارا على نفسية ، بل وشخصية المعاق ، سواء أكانت ظاهرة جلية ، أم خفية تحتاج إلى تأمل وتدقيق . ولو وقفنا مع

[1] متحدو الإعاقة من منظور الخدمة الاجتماعية ص ١٠

[2] سياسات الرعاية الاجتماعية للمعوقين في المجتمعات النامية، عبد الله محمد عبد الرحمن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ م ، ص ١٥٢

إعاقة كف البصر لنرصد مدى تأثيرها على المعاق سنجد أن " كف البصر يفسح المجال لظهور سمات شخصية غير سوية في شخصية الكفيف في كثير من الأحيان"[1] هذه السمات توثر سلبا على تعاطي المعاق مع ما يواجهه من أمور حياتية ، ومع التأقلم المعيشي داخل مجتمعه " فالرجل الصحيح الجسد ربما لا يحتاج في إظهار شخصيته ، والتأثير في غيره إلى ما يحتاج إليه المشوه الخلقة أو المنقوص الجوارح ، فبينما نجد الرجل الصحيح طبيعيا في معاملته ، لأنه لا يشعر بنقص خارجي يريد أن يكمله ، إذ نجد ذاك المبتلى محبا للتظاهر ، مرتجيا التميز ، منتهزا استغلال الفرص للظهور،بل إنهم يبرهنون على أن الإنسان حينما يحس نقصا من الناحية الجسمية ، إنما يعمل دائما على أن يملأ هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص بتعويضه عن طريق تفوقه العقلي ، أو الخلقي، أو هما معا"[2]

إذاً فالإعاقة تؤثر سلبا على المعاق ، وتدفعه نحو حياة خاصة تختلف عن حياة الأسوياء ، طبعا مع اختلاف درجة التأثير من شخص لآخر .

لذلك فإعاقة البردّوني البصرية ، مع إيمان كثير من النقاد أنه استطاع تجاوزها بإرادته القوية،إلا أنها تركت أثرا واضحا على شخصية البردّوني، وما يهمنا في هذا الطرح هل كان لفقد البصر من دور في توجّه البردّوني إلى أسلوب السخرية ؟ للإجابة على هذا التساؤل يجب أن نعود إلى ما قرره البحث سابقا ، وهو أن السخرية نوع من أنواع الهجاء ، " والصلة بين العمى والهجاء عميقة ذلك أن الهجاء ليس سوى تجسيد للقبح والتشويه والمنكر ، وهي صفات ملازمة لبعض العميان الذين

[1] الإعاقة الحسية المفهوم والأنواع وبرامج الرعاية، مدحت أبو النصر ، مجموعة النيل العربية ص ١٠٤
[2] الشخصية ، محمد الأبرشي ، مطبعة التأليف ، والترجمة والنشر ، مصر ، ١٩٣٨ م ، ط٣ ، ص ٩٩

افتقدوا منذ نشأتهم الحب والعقيدة السليمة ، لفقدهم الأسرة الصالحة المتماسكة ، والمجتمع الرحيم " [1] .

إذاً هذا الميل إلى القبح ناتج عن ترسبات داخلية يشعر بها الأعمى فيحاول أن يخفف منها بأساليب متنوعة ومنها الهجاء ليكون وسيلة تفريغ لما يشعر به من قلق نفسي يحاول التخلص منه ، " فكف البصر المفاجئ يصيب صاحبه بالانقباض وأحيانا بالسلوك العدواني " [2] هذه العدوانية التي مثلت في شخصيته الجانب الساخر من كل شيء ، كانت بالنسبة للبردّوني هي الطريق إلى التوازن النفسي ، بل إنها الطريق لإثبات الوجود والشعور بالطمأنينة التي يحرم منها الأعمى بفقد بصره . ففقد البصر وخاصة المبكر منه " يطبع صاحبه بسمات ضعف الثقة بالنفس ، وعدم الشعور بالأمن" [3] لذلك يلجأ الكفيف إلى أساليب متعددة للخروج من هذه المحنة ، وأسلوب الهجاء نوع من أساليب الهروب المحببة للأعمى لأن فيه انتصارا لشخصيته المهزومة وإنقاصا من قدر المجتمع الذي جار على صاحب هذه الإعاقة ، فكانت سلاحا دفاعيّا في المقام الأول ، وانتقامياً في المقام الثاني . فالسخرية إذاً لم تكن إلا ستارا حاول البردّوني أن يخفي خلفه متاعبه مع العمى ، إلا أنه لم يستطع أن يستر هذه المشاعر المكبوتة فكانت تظهر جلية في العديد من المواقف على أشكال متنوعة ، في وحدة لا تكاد تفارقه بل تسيطر على كل جوارحه، إذ يعيش معها في كل لحظاته :

[1] عبد الله البردّوني حياته وشعره ص ٣٩
[2] السلوك الاجتماعي للمعوقين دراسة في الخدمة الاجتماعية ص ٧٦
[3] المرجع السابق ص ٧٦

وحده يحمل الشقا و الســــنينا لا معين و أين يلقى المـــــعينا

وحده في الطريق يسحب رجليـ ـه و يطوي خلف الجراح الأنينا

متعب يعبر الطريق و يــمضي وحده يتبع الخــيال الحــــزينا [1]

هذه حياة البردّوني التي كابدها ، وعانى الجراح دون معين أو نصير، وحدة محملة بشقاء السنين ، كل ما حوله يصرخ من الألم ، كما أن قوله يسحب رجليه تشعرك بثقل هذه الخطوات التي يجبرها البردّوني على السير دون رغبه أو أمل في الوصول . لم تكن وحدة البردوني خافية وإنما كان يصرخ بها البردوني بأعلى صوته :

وحدي هنا يا ليـــل وحدي ما بين آلامي و ســـهدي

وحدي و أموات المـــــنى و الذكريات السود عندي

وكأنّ أشباح الدّجـــــــى حولي أماني مســـــــتبدّ

تطوي أحاسيســــــي و تنـ شرها و تخفيها و تبـــدي

والليّل يلهو بي كمــــــا يهوى التجنّي و التــعدّي

فكأنّني في كفــــــــــــّه عرض الكريم بكفّ وغد

ياليل لي قلب يـــــــحنـ ـن إلى العلا بأحرّ وجـــد [2]

ارتبط شخص البردّوني بالوحدة عندما وجد أن المجتمع يرفضه كمعاق ولايقدم له ما يحتاجه من دعم ففضل البردّوني كغيره من المعاقين أن يهجر هذه الحياة ويعيش في رحاب وحدته . هذه الوحدة التي لم يستطع مفارقتها قادته إلى عالم مجهول ، لا مجال

[1] ديوان البردّوني ص ١٣٢
[2] نفس المرجع ١٦٣

فيه إلى الهداية ، بل إن كل ما فيه غامض لا يكاد يعرف ، حتى نفسه أصبح يجهل عنها الكثير . عالم أشبه ما يكون بليل حالك المسالك لا طريق فيه وليس له نهاية :

كئيب بطيء الخطا مؤلـــم يسير إلى حيث لا يعـلم

و يسري و يسري فلا ينتهي سُراه و لا نهجه المظلم

وتنساب أشباحه في السكو ن حيارى بخيبتها تحــلم

هو اللّيل في صمته ضــجّة و في سرّه عالم أبكـــم

كأنّ الصبابات في أفقـــــه تئنّ فترتعش الأنجـــــم

حزين غريق بأحــــــزانه كئيب بآلامه مفعـــــم

كأنّ النجوم على صــــدره جراحٌ يلوحُ عليها الدّم [1]

نصل في النهاية إلى أن هذا الليل ليس إلا البردّوني في رمزيته المحببة ، فعلاقته بالليل علاقة سرمدية ، علاقة يجمعها الظلام ، وتغني فيها الوحدة ، وتتشابك فيها الهموم ، علاقة يفسرها هو في وصفه للّيل :

واللّيل يسري كأعمى ضلّ وجهته و غاب عن كفّه العكّاز و الهـــادي

كأنّه فوق صمت الكون قافــــــلة ضلّت وضلّ الطريق السّر و الحادي [2]

هذا التشبيه يقودنا إلى ما يشعر به البردّوني من غربة وضياع وألم يصارعه في حياته، مهما قلنا إنه تخلص من هموم إعاقته إلا أننا نجده يُرجع لحنها بين الفينة والأخرى علّه يجد الراحة في ذلك الرجع .

[1] ديوان عبد الله البردوني ص ١٣٢

[2] نفس المرجع ص١١٤

وعندما يئس البردّوني من الخلاص من هذه المحنة ، وما سبّبته من ألم سار معه منذ نعومة أظافره وجدناه يتبع سبيل أستاذه أبي العلاء المعري في تمني الموت وطلب الراحة من خلاله ، فهذا المعري يطلب الراحة من العمى جاعلا السبيل هو أن يوارى في الثرى : إذا طفئت في الثرى أعين فقد أمنت من عمى أو رمد [1]

وفي قول المعري طفئت إحساس رهيب بعظم المحنة ، فهو يرى أن العالم قد غرق في ظلام دامس لن يخرج منه ، كما أن قوله أمنت يوحي بقلق نفسي كبير ، وعدم شعور بالأمن الذي كان يبحث عنه في حياته ، لكنه اكتشف أن الوصول إليه لن يكون إلا تحت الثّرى وعلى طريق أبي العلاء يسلك البردّوني طريق الخلاص من محنته :

فمتى متى يطفي الفنا الـ موعــود عمري الأحمقا

كيف الخلاص و لم يزل روحي بجســمي موثــقا

لا الموت يختصر الحيا ة و لا انتهى طــول البقا

لا القيد مزّقه الســجيـ ن و لا الســجين تمزّقـا [2]

حيران لم يطق الحــيا ة و لم يطق أن يزهــــقا

يا آسر العصفور رفــ قا بالجناح المـــــتعب

سئم الركود و لم يــزل في قبضة الشوك الغـــبي

درن التراب مجـــسّد في الشيخ ، في ثوب الصبي [3]

[1] شرح اللزوميات ، نظم أبي العلاء المعري، تحقيق ، منير المدني ، زينب القوصي ، وفاء الأعصر، سيدة حامد ، إشراف الدكتور حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م ، ج ٢ ص ٢٩

[2] في المرجع / لا القيد مقه السجـ ين ولا السجين تمزّقا

[3] ديوان عبد الله البردوني ص ١٣٦

" فالبيتان الأخيران محملان بالضيق النفسي الجارف من العمى، فالعمى ركود وملل، وشوك جارح غليظ لا يرحم ، ويشفق على نفسه في البيت الأخير ، إن القول في ثوب الصبي ، يبين أنه لا يستطيع أن يميز من أثوابه النظيف المناسب ، ولكلمة مجسّد إيحاءاتها العميقة بآلامه المستمرة ، كما أوحت كلمة الصبي أيضا بشكواه من ماضيه المؤلم في غَيابات العمى . وهذه المرحلة من شعره خلال ديوانيه الأولين من أرض بلقيس ١٩٦١م،وفي طريق الفجر ١٩٧٦م يذكر فيها العمى بوصفه مصابا مؤلما " [١]

يتأكد من هذا التحليل الذي ذهب إليه الدكتور أحمد إسماعيل أن البردّوني وصل إلى درجة التشاؤم من واقعه المعاش ، بل أصبح لا يرى بارقة أمل في غد مشرق ، حتى ولو في خيالات شاعر ، فكل ما يحيط به هموم وأحزان ليس منها مخرج :

غبت في الصمت و الهموم الضّــواري   والأماني و الذكريات الســـــواري

و تغلّفت بالوجـــــــــــــوم وواريـ   ـت همومي في صمتي المـــتواري

و خنقت اللّحـــــــــون في حلق مزما   ري و أغفى على فمـي مزمــاري

وانطوت في فمي الأغـــــاني و ماتت   نغمي في حنـاجــــــــر الأوتار

و تلاشى شعــــــــري و نام شعوري   نومة اللّيل فوق صـــــــمت القفار

و تفانى فنّي و لم يـــــــــــبق إلاّ   ذكريات الصدى بشـــ جو ادّكار

و خيال النحيـــــــــب في عودي البا   كي و طيف النشيج في أســــراري

و كأنّي تحت الدياجــــــــير قبر   جائع في جوانح الصـــــمت عاري

و أنا وحدي الغريــــــــب و أهلي   عن يميني و إخوتي عن يســـــاري

---

[١] عبدالله البردوني حياته وشعره / د. أحمد إسماعيل / ص ٤٠

و أنا في دمي أسـيـر ، و في أر　　ضي شريد مقـيّد الأفـكار

و جريح الإبا قتيل الأمـاني　　و غريب في أمّـتي وديار ي

كلّ شيء حولي عليّ غضـوب　　ناقم من دمي علـى غير ثار [1]

تراكمت هموم البردّوني وآلامه ، فلم يجد غير طريق الموت ليسلكه ليرتاح من كل عذاباته وأوهامه ، فمهما كانت هذه المصيبة عظيمة تبقى أهون من حياته المرتبطة بالذل والمعاناة :

يا حياتي ويا حياتي إلى كم　　أحتسي من يديك صابا وعـلقم

وإلى كم أموت فـيك وأحيا　　أين مني القضا الأخير المحتم

أسلميني إلى الممـات فإني　　أجد الموت منك أحنى وأرحم

وإذا العيش كان ذلا وتعذيـ　　ـباً فإن الممات أنجى وأعصـم[2]

إن هذه الوحدة والغربة وتمني الموت بل السعي وراءه يكمن وراءها نفس معذبة مجروحة ، هذه النفس المعذبة والمجروحة تحاول أن تجد ما يخفف عنها ، ويرد لها بعض طموحاتها من حياة سلبتها الفرحة ، والسعادة ، فلم تجد إلا التشفي منها ، وجلدها ، بل والانتقام أحيانا ، فكان أسلوب السخرية هو السبيل فهو يجمع بين أمرين يحتاجهما ، تشفـّ من هذه الحياة ، وأنس وفرح للنفس ،وذلك بالاستبدال بهذه الأنّات الموجعة بسمات ضاحكة ، حتى ولو على حساب بكاء مدفون داخل هذه الضحكات .

لا تسل عنّي فآلام الورى　　بضلوعي كاللهيب النّهم

وغنا شعري بكا عاطفتي　　وتباكي جرحي المبتسم [1]

([1]) نفس المرجع ص ١٥٨

([2]) نفس المرجع ص ١٣٧

هذه الفلسفة البردّونية التي استمدّها من آلامه وأحزانه قادته إلى أن يسخر ، بل إلى أن تكون السخرية منهج حياة." فالإنسان أعمق الموجودات ألما ـ في نظر نيتشه ـ لهذا كان لابد له من الضحك فأكثر الحيوانات تعاسة،وشقاء هو أكثرها بشاشة وانشراحا"[٢]
لذلك كان من المنطق أن يذهب البردّوني نحو السخرية ليجعلها أسلوبه المحبب ، بل ترياقه للخروج من آلامه وأحزانه . " فأثر هذه المصيبة من الحزن عظيم يلزم صاحبه في جميع أطوار حياته لا يفارقه ولا يعدوه ذلك لأنه يذكر بصره كلما عرضت له حاجة ، وكلما ناله من الناس خير أو شر ، بل كلما لقيهم في مجمع عام أو خاص فما زال الحزن يؤلمه ويحزه " (٣)

---

(١) نفس المرجع ص ١٩٠
(٢)سيكولوجية الفكاهة والضحك / د . زكريا إبراهيم / دار المعارف مصر ١٩٥٦م / ص ٨
(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء ـ طه حسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٩ ص ١١٢

٢ ـ فقد الأم :

لم تقف الأقدار في مرورها بأرض البردّوني عند حد فقد البصر ، وإنما عاودت هبوبها مرة أخرى ، حاملة في جعبتها هذه المرة ، فقد أعطف قلب ارتبط به قلب البردّوني ، وظلّ ف يد امتدت لتخفف عنه هموم حياته ، التي أثقلت كاهله ، عصفت رياح الفراق آخذة في طريقها هذه المرة رفيقة عماه ، وملهمته الصبر والسلوان . لقد فقد البردوني أمه ، وأصبح أسير الحزن الذي ملأ قلبه وجوارحه " فالأم مصدر حياته وأحلامه وقد تركته في صباه ، فزادت من معاناته وآلامه " [١]، فالبردّوني قد احتمل من الهم ، والحزن ما يكفيه ، لتأتي هذه المصيبة لتعمق هذه الجراح ، وتترك البردّوني يصارع شقاء الحياة وحده ، دون تلك اليد الحانية التي كان لها الأثر الكبير في تخفيف أحزانه وهمومه . لكن ما يهمنا هنا هو أن نعرف ما علاقة فقد أمه بتوجهه إلى الأسلوب الساخر . أو لنقل بطريقة أخرى كيف هيأ هذا الفقد أرضية البردّوني لتكون تربة صالحة لنمو غرسة السخرية في نفسيته .

وقبل أن نبدأ في توضيح أثر فقد الأم على توجه البردّوني الساخر ، سنتعرف على أهمية دور الأم في حياة طفلها ، لأننا لا نشك لحظة واحدة في أن للأم " أثرها البالغ في شخصية الطفل نفسيا وخلقيا وبدنيا ، وذلك بحسب الأساليب ، والأنماط السلوكية، والمعرفية التي تراعيها في تربية طفلها" [٢] ، ومن هنا لا نستغرب أن الإسلام يعطي تلك المكانة العالية للأم و﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

---

[١] شعر عبدالله البردّوني ص ٧٩
[٢] الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة ، مها عبد الله الأبرش ، ١٩٩٦ م ج ١ ص ٩٩

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}[1] أي أنه لما أوصى بالوالدين ذكر شدة بلاء الأم ، وما تعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا "[2] من هنا نجد تلك المكانة العالية للأم في الإسلام فكل ما تتحمله من عناء ومشقة في سبيل أبنائها ، وكل ما تبذله من أجلهم أعطاها هذه المكانة العالية التي نجدها في إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل الذي أتاه ليسأله عن أحقّ الناس بصحبته "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم أبوك "[3]

فتكراره صلى الله عليه وسلم في وصيته للأم فيه دلالة واضحة على مكانة الأم ، وما لها من دور ريادي في تربية الأبناء ، إذا نستطيع القول " إن لكل بناء أساسا ودعامة ، ولكل عمل قواما وركيزة ، كذلك الأم ركيزة عظيمة ، ولبنة هامة في المجتمع تمنح بنيها ـ بعد الخالق سبحانه وتعالى ـ الحياة ، فهم في بطنها أجنة يقضون أشهرا في قرار مكين يغتذون من دمها،ثم هم بعد الوضع أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ، ثم هم فتيانا وشبانا معقد أملها ، فإذا ما اكتهلوا فهم فخارها وذراها ، وهم حينئذ ذكرانا وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها

---

[1] سورة لقمان آية ١٤
[2] الكشاف ج ١ ص ١٩
[3] صحيح البخاري ج٧ ص ٦٩

فيهم ، وفي ذراريهم . "[1] ولو وقفنا مع قصة تربية مريم عليها السلام نجد أمراً عجيبا يقودنا إلى ذلك الدور الذي تضطلع به الأم في تربية أبنائها ، فإننا وخلال تتبع قصة مريم عليها السلام نجد أنه " لم يرد ذكر لأبيها في تربيتها إلا في قوله تعالى { ما كان أبوك امرأ سوء } أما عملية التربية،والتحصين الأخلاقي فكانت للأم "[2] فدور الأم كما يتضح من خلال هذا الاستنتاج أكبر من دور الأب، خاصة في تربية الأبناء ، وهذا الدور المهم تقوم به كل أم ، فكيف إذا كان هذا الابن معاقا ، فلا شك أن ارتباطه بأمه سيكون أكثر ، واحتياجه لها ضرورة لا بد منها . ولو رجعنا للبردّوني لنعرف ذلك الدور الذي كانت تقوم به أمه تجاهه ، لوجدناها هي حياة البردّوني ، خاصة بعد فقد بصره ، فلقد تعلق البردّوني بها أيما تعلق ، فقد كانت رفيقة حياته ، ومعينته على مصائبه المتتالية ، حتى إنها كانت مطعمته ، وهاديته إلى تحسس طريقه المظلم .

" هي مصدر حياته،وأحلامه وقد تركته في صباه ، فزادت من معاناته وآلامه " [3]

لكن يبقى السؤال هل فقد الأم دفع البردوني إلى أن يكون ساخرا ، للإجابة على هذا السؤال يجب أن نقف على الآثار التي يتركها فقد الأم على شخصية الابن ، فلا يشك عاقل أن هناك آثارا سلبية لفقد الأم تؤثر بشكل مباشر في رسم معالم شخصية هذا الطفل الفاقد لأمه "فالأم هي النافذة التي يطل منها الطفل على العالم سواء عالمه الصغير في داخله ، أو العالم المحيط به ، وعلى قدر إشراقها ونورها ، يكون ما

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، دار النهضة ، مصر ، ١٩٨٠ م ، ص ، ٧٦
(2) الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة . ج١ ص ، ١٠٨
(3) شعر عبدالله البردوني ، ص ، ٧٩

يملكه الطفل من ملكات نفسية وخلقية ،وعقلية" [١] هذه النافذة التي تشعره دوما بالأمان والاطمئنان " فالطفل الذي يشعر بأن لا شيء يمنعه من اللجوء إلى الأم (الوجه الذي يتعلق به) عندما يرغب ،وكلما اقتضت الظروف ذلك ، وأن الأم تقبل ذلك برحابة صدر يكون اكثر أمنا ، وأقل خوفا ، من طفل آخر ، لا يملك الثقة بحضور الأم ، واستعدادها نحوه . إن تشكيل هذه الثقة يتم عبر المراحل المختلفة من تطور الطفل ،ويتعزز من خلال التجربة التي يعيشها الطفل مع الأم بشكل يومي."[٢] لأن شعوره بأنه بجوارها يمنحه ذلك الإحساس بالأمان ، فيندفع للحياة بنفس راضية مطمئنة ، معتمدا على الله أولا ، ثم تحسسه لليد الحانية التي يجدها كلما أراد الوقوع ، فتحمله ، وتعيده لجادة الطريق"فالطفل حيوان صغير مقلد يتأثر بكل ما يحيط به من أنماط سلوكية مختلفة ، وليس أهم من الوالدين من يستطيع أن يرسم للطفل طريق المحاكاة ، والتقليد . فالطفل يتعلم الكثير من والديه ، ويتعلم ذلك بسرعة فائقة ، فكل اضطراب في سلوك الوالدين ، أو انحراف في شخصيتهم لا شك يعكس آثاره على شخصية الطفل عاجلا أم آجلا " [٣]ونقول إنّ الأم لها الدور الأكبر في هذه العملية ، كيف لا وهي التي تصحب هذا الصغير ، وتلازمه طوال اليوم ، فلا شك أن أثرها السلوكي سيكون أكبر من أثر الأب ، ولا نقلل من أثر الأب في ذلك التكوين النفسي لشخصية الابن ، لكن هذا الأثر لا يقارن بأثر الأم . فلقد أوضحت الدراسات أهمية سلوك الأم في تشكيل السلوك عند الطفل وتطوره ، فلقد اشار كل من جولد فارب

---

(١) الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة ، ص ، ١٠٦
(٢) الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم ،، فايزة قنطار ، دار العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨ م ، ص ٥٠
(٣) الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ودور الخدمة الاجتماعية لهم ، محمد سلامة ، مصر ، الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٩ م ، ص ، ١٣٠

(١٩٤٣م) وبولبي (١٩٥٢م) " إلى أهمية دور الأم في عملية تطبيع وليدها اجتماعيا ، فلقد أشار إلى أن الطفل يلقى العناية بالحاجات الفسيلوجية الأساسية له ، دون أن يلقى العناية نفسها بالجوانب الشخصية فإننا نلاحظ تعرضه لآثار خطيرة على خصائصه الشخصية ، ومستقبل حياته " [١] فإن فقد الطفل هذه العناية ، لا شك في أنه سيتعرض للكثير من المشكلات النفسية ، والتي تؤثر بشكل واضح في شخصيته ، ومن أهم هذه الآثار السلبية :

١ ـ" تعطيل النمو الجسمي والذهني والاجتماعي . فللحرمان الأمومي آثار سيئة على هذه النواحي من النمو ، وهذا الرأي مستمد من دراسات متعددة قام بها الباحثون في مختلف البلدان ، ووصلوا فيها إلى أن نمو الأطفال في المؤسسات يختلف عن نموهم في أسرهم ، أو في دور الكفالة ، ومرد ذلك هو أن حرمان الطفل من عناية أمه يعطل نموه في النواحي الجسمية والذهنية والاجتماعية ." [٢] هذا التعطيل يكون له آثاره السلبية ليس فقط على طفولة الصغير ، وإنما تمد هذه الآثار ظلالها على حياة هذا الإنسان بشكل عام .

٢ ـ اضطراب النمو النفسي (اضطراب تكوين الأنا ، والأنا الأعلى) .

إن وجود الأم في حياة الطفل يجعله يعيش حياته الطبيعية بشكل سليم ، كما أنه يوفر له التكوين السليم لذاته الشعورية،التي يبدأ في تكوينها منذ مراحل حياته الأولى " أما في حالة انفصال الطفل عن الأم في هذه الفترة فإن ذلك يؤدي إلى اضطراب هذه

---

(١) علم النفس الاجتماعي نظرياته وتطبيقاته ، عباس عوض ، رشاد دمنهوري ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٧ م ، ص ، ٦٧ـ ٦٨

(٢) علم النفس الاجتماعي دراسات نظرية وتطبيقات عملية ، مصطفى فهمي ، محمد القطان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، ص ، ١٠٦

الذات الشعورية ، وينعكس ذلك الاضطراب على تكوين شخصية الطفل ، وتعرضه للانحراف "[١]

٣ ـ شعور الطفل بأنه منبوذ أو مهمل .

إن الطفل المحروم من أمه، كثيرا ما يشعر بأنه منبوذ ، أو غير مرغوب فيه ، فهو لا يجد من الرعاية والاهتمام ما يلبي حاجاته النفسية، فيتولد لديه ذلك الشعور بالإحباط ، والإهمال ، مما ينعكس سلبا على تصرفاته ، وأعماله ، فشعور الطفل بأنه منبوذ ينعكس على تصرفاته ، وتعامله مع غيره ، فتبرز في هذه التصرفات أمور منها

أ ـ يقوم بأنواع من السلوك يقصد به لفت نظر الأهل : صراخ أو ضحك بصوت عال، أو القيام بنشاط زائد او كثرة الشكوى، والتذمر ، أو كثرة الشقاوة، أو التخريب ، أو إتلاف أدوات المنزل والأثاث ، أو السرقة .

ب ـ القيام بسلوك يتميز بالمقاومة والعدوان ، والثورة والعناد فكثيرا ما نجد هؤلاء الأطفال مصدر تعب للمدرسة والمنزل وليس من السهل إخضاعهم للسلطة .

ج ـ نجد هؤلاء الأطفال يقومون بسلوك يدل على حقدهم على المجتمع وتحديهم للسلطة. إن سلوكهم يدل على المرارة والغيرة ، وعدم الرضا . إنهم في الواقع يعبّرون عن هذه المشاعر بطريقة تدل على عدم الاكتراث . [٢]

من خلال ما سبق ذكره يتضح الأثر الكبير الذي يرسمه فقد الأم على شخصية الفرد ، ونحن فيما مضى نتحدث عن شخص سليم ، خال من الإعاقة ، فكيف إذا أردنا أن نلمس هذه الآثار على نفسية هذا المعاق التي تأتي من آثار الإعاقة ، لنكمل عزف

(١) نفس المرجع ص ١١٨
(٢) نفس المرجع ص ١٢١

أوتار أحزانها بفقد الأم ، وما يترتب عليه من آثار نفسية ، إذاً لا نخطىء إن قلنا إنّ آثار حرمان المعاق من والديه ، وبخاصة أمه ، يكون أضعاف أثر الإنسان السليم ، لأن احتياج المعاق لهما ، وبخاصة أمه يكون أضعاف احتياج الإنسان السليم ، فإن أردنا أن نقيس أثر حرمان المعاق من أمه فعلينا أن نستشعر تلك العلاقة المميزة التي تجمع بين المعاق وأسرته ، وبخاصة أمه ، فهي الرفيقة ، وهي المعينة ، وهي الهادي للطريق بعد أن أطفئت شمعة عينه . لذلك فإن اعتماد الفرد المعاق على والديه وخاصة أمه يكون أكبر من غيره ، كما أن مساحة الشعور بالأمان التي يبحث عنها ذلك المعاق أكبر من غيره، وعليه فإن الأثر النفسي الذي يتركه فقد الأم على المعاق يكون أكبر ، وأعمق من ذلك الأثر الذي يشعربه الإنسان السليم.فينتج عن ذلك الإحساس شعور بالغربة ، ورغبة جامحة إلى معانقة ذلك الحنان المفقود ، وهو ما نلمسه في كتابات البردّوني عن المرأة.

يقول واصفا المرأة : " فعندما تحركت خطوات الإنسان ، واكبت المرأة الرجل،بل سبقته فكان وراء كل بطل أم بطلة،وخلف كل متفوق أم متفوقة"[1] من هنا يتضح ذلك الشعور بالرغبة عن الحديث عن الأم ، مع أنه في هذا المقال كان يتحدث عن يوم المرأة العالمي ، إلا أن إحساسه بذلك الحنين إلى أمه قاده إلى ضرب هذا المثل مع التغيير المصاحب له ، فقد اعتدنا القول : إنّ وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة ، دون أن نقيد هذه المرأة بالأم ، فقد تكون أما ، أو زوجة ، أو غير ذلك ، لكن البردّوني أراد أن يقول لنا بشكل غير مباشر إنّ أعظم مؤثر في حركة الفرد هي أمّه،إنه شعوره

(1) قضايا يمنية / عبدالله البردوني ، دار الفكر ، دمشق ، ط٥ ، ١٩٩٦م ، ص ٣٥٦

الذي لازمه ومشاعره الجارفة تجاه أمه ، تظهر كلما عَنّ ذكر للمرأة ، فالمرأة عند البردّوني لابد أن تلبس وشاح الأمومة "لأنها نقطة انطلاق الرجل يأتي منها كما تأتي الثمرة من الشجرة،ويأتي إليها كما يأتي القاطف إلى العناقيد، فهي مصدر العطاء "[١] العطاء الذي حرم منه البردّوني ، فأخذ يبحث عنه في كل زاوية من حياته ، فعندما لم يجدها ، ذرف عليها دموعه الدامية ، فرثى أمه ، بقلبه قبل لسانه ، فخرجت تلك العبارات لتجسد حجم المعاناة .

تَرَكَتْني ها هنا بين العذاب و مضت ، يا طول حزني و اكتئابي

تَرَكَتْني للشقا وحـــدي هنا و استراحت وحدها بين التــــراب

حيث لا جور ولا بغي ولا ذرّة تنــــبي و تنــــبي بالخـــراب

حيث لا سيف و لا قنـــبلة حيث لا حـــــرب و لا لمع حراب

حيث لا قيد ولا سوط و لا ظالم يطغى و مظـــــــلوم يحابي [٢]

يعبّر البردّوني عن حجم المعاناة التي يشعر بها بسبب فقد أمه ، فيبدأ بقوله تَرَكَتْني ، ليعبر عن التصاقه بها ، وشدة ارتباطه بها ، فالترك يدل على عدم رغبته في ذلك الفراق الذي حكم الله به أن يكون ، ولا يسعه إلا التسليم بقضاء الله وقدره ، وإن كان قاسيا ، ومؤلما ، ثم إن تركها جعله وحيدا يحيط به العذاب من كل الأمكنة ، فقوله بين العذاب دليل على سيطرة العذاب عليه ، هذا الترك جعله يتعمق في الأحزان ، ويغرق في الاكتئاب ، الذي يعاني منه سابقا بفقد بصره ، فجاءت هذه المحنة لتزيد الطين بلة ، ثم ينتقل إلى التعبير عن فلسفته للموت ، وكيف أنه السبيل الأمثل للراحة

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٥٦

(٢)ديوان البردوني ص ١٠٨

الدائمة، السبيل الذي طالما تمناه ، لكن الأقدار أراحت أمه وتركته هو لشقاء الحياة ، حرمته هذه الأقدار من أن يتنعم بالموت ، وأبقته يصارع هموم الحياة ، لكنّه هذه المرة وحده دون معين أونصير يأخذ بيده في ظلمتها .

ويظهر في هذا المقطع العمق النفسي لشخصية البردّوني ، والذي تسبب فيه كثير من العوامل على رأسها ، عماه ، وفقد أمه ، فعبارات الحزن ، والاكتئاب ، والوحدة ظاهرة على تعبيرات البردّوني ، مما يعطينا صورة واضحة عن أعماق نفسية البردّوني ، وأثر هذه الظروف عليها .

خلّفتني أذكر الصــــفو كما يذكر الشيخ خيـــــــالات الشباب

و نأت عنّي و شوقي حولها ينشد الماضي و بي –أوّ اه – ما بي

و دعاها حاصد العـمر إلى حيث أدعوها فتعيا عن جــــــوابي

حيث أدعوها فلا يسمـــعني غير صمت القبر و القفر اليـــباب

موتها كان مصابي كــــــلّه و حياتي بعدها فوق مــصـــــابي [1]

تركته أمّه يتذكر ذلك الماضي الجميل الذي عاشه بقربها ، مع أن هذا الصفو ليس إلا خيالا فحقيقة ماضيه مأساويّة ، إلا أنها أقل مما يشعر به الآن ، فمصيبة أهون من مصيبة ، فهذا الماضي ، شبيه بتخيلات شيخ لأحلامه الشبابية ، لا يستيقظ على فاجعة أمه ، التي حرمته من أن يستمتع بنغم صوتها الذي كان أنيسه في وحدته ، فأصبح لا يعيد له رجع سؤاله ، وحال بينه وبين ذلك الصوت تراب القبر ، فكانت أعظم مصيبة مرت عليه ، فموتها كل مصابه ، مصاب لا يعدله مصاب ، وأكبر منه حياته بعدها ،

(1) المرجع السابق ص ١٠٨

فهي المصيبة الأعظم ، والفاجعة الأدهى ، والأمرّ ، فكيف يستطيع أن يعيش حياته دون أن تكون أمه فيها . فهي مصيبة إن لم تكن أكبر من فقدها فهي على الأقل مساوية لها .

آه " يا أمّي " و أشواك الأسى   تلهب الأوجاع في قلبي المــذابِ

فيك ودّعت شبابي و الصّــبا   وانطوت خلفي حلاوات التصابي

كيف أنساك و ذكراك عـــلى سِفْر أيّامي كتاب في كـــــتابِ

إنّ ذكراك ورائي و عـــــلى   وجهتي حيث مجيئي و ذهــابي

كم تذكّرت يديك وهـــــــما   في يدي أو في طعامي و شرابي

كان يضنيك نحولـــــي و إذا   مسّني البــــرد فزنـــداك ثـيابي

و إذا أبكاني الجـــــوع و لم تملكي شيئا سوى الوعد الكذّابِ

هدهدت كفاك رأسي مــــثلما هدهد الفجر رياحــين الـرّوابي

كم بكت عـــــيناك لمـّا رأتا   بصري يطفا و يطوي في الحجابِ

و تذكّرت مصيري و الجوى   بين جنبيك جراح في التـــهـــابِ [1]

يبدأ البردّوني رحلة تذكارية يعيش في أجوائها مع أمه ، أمه التي حكمت عليه أن يلقي بزمن الصبا في ذاكرة التاريخ ، فقد انتهت أيامه برحيلها ، وكأنها إشارة من البردّوني إلى أن حياته معها كانت قريبة من سعادة الصّبا، وفرح وحلاوات التصابي . كل ما في الحياة يذكره بأمه ، حتى عماه يعيد تلك اللحظات التي تشاركه يدا أمّه فيها ، فهي لا تفارقه أبدا ، إما قائدة له ، أو ساقية لظمئه ، أو سادة لجوعه،متفجعة على حالتي

[1] المرجع السابق ص ١٠٩ ـ ١١٠

الصحية . باكية على فقد بصره ، حزينة على مصيره ، وما تحمله الأيام من كرب لهذا الضرير، في مجتمع لا يرحم الأسوياء فكيف بالضعفاء . هذه الذكرى التي توقد في قلبها الأسى ، والحزن على مصير هذا الصغير المعاق ، الذي يحتاج لها في كل لحظات حياته ، شعر البردّوني بعمق المأساة التي سببها لأمه ، فهو يشعر بذلك الهم الذي تحمله بسببه ، لذلك نجده ينطلق في نهاية القصيدة ليقول لها مطمئننا إنّ ذلك الصغير الذي كنت تخشين عليه من غائلة الزمان أصبح سمع الدنيا ، وبصرها ، أصبح شدوها ، وحزنها ، أصبح التاريخ يتحدث عنه بملء فيه ،

هأنا يا أمّي الـــــيــــوم فتى طائر الصّيت بعيد في الـــشـــــهـاب

أملأ الـــتـــاريخ لحنا وصدى و تُغني في ربا الـــخـــــلد ربــابي

فاسمعي يا أمّ صوتي وارقصي من وراء القبر كالـــحورا[1] الكعـاب

ها أنا يا أمّ أرثــــيـــــك و في شجوِ هذا الشعر شجوي و انتـحابي . (٢)

لكن هذه السعادة لا تكتمل في اعتقاد البردّوني لأن هذا الشدو لا يصل إلى أمه ، فقد تمنى أن تكون سامعة له ، راقصة على أنغامه ، فعندما يئس من هذا المطلب انتقل إلى رثائها بنفس الشعر الذي أراد أن ترقص على أنغامه .

كل هذا الحزن الذي ملأ قلب البردّوني، رسم تلك النفس الثائرة على الحياة، الحياة التي لم تصف له منذ أن خرج طفلا وليدا في أسرة فقيرة تكابد شظف العيش ، إلى أن هبت أقدار عماه،إلى أن نزلت بساحته مصيبة فقد أمه،وكأن هذه الحياة لا تعرف إلا

---

[1] كالحورا : قصر كلمة الحوراء ، ويكثر حذف الهمزة وقصر الممدود عند البردّوني . (الكِعاب) خطأ في الديوان والصحيح (الكَعاب) بفتح العين .

[2] المرجع السابق ص ١١١

البردّوني لتعاود كلم جراحه كلما برأت ، وكأن هذه الجروح أصبحت قدر ا لابد أن يسير عليه البردّوني

أبدا أسير على الجروح وأنتهي حيث ابتدأت فأين مني المختم [١]

والهموم رفيقة دربه ، وكأنها لا تعرف إلا قلبه المتفطر ، حتى خيّم عليه اليأس .

وحدي أعيش مع الهموم ووحدتي باليأس مفعمة وجوي مفعم [٢]

فصاغ لنا فلسفة عجيبة لكل هذه الجراح التي يعانيها ، فلسفة قائمة على الضحك المبكي .

أبكي فتبتسم الجراح من الـــبكا فكأنها في كل جـــارحة فـــــم

يا لا بتسام الجرح كم أبكي وكم ينساب فوق شفاهه الحـــمـرا دم

وأصوغ فلسفة الجراح نـــشائدا يشدو بها اللاهي ويشجى المؤلم [٣]

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢
(٢) المرجع السابق ص١١٣
(٣) المرجع السابق ص ١١٢ ـ ١١٣

٣ ـ ثقافته :

لا يشك أحد في أن ما يحيط بالإنسان يسهم بشكل أو بآخر في تكوين توجهات هذا الفرد ، سواء بشكل كبير يظهر على تصرفاته المختلفة ، أو بدرجة بسيطة ، قد يجدها المتتبع لتفاصيل حياة هذا الفرد . وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خير شاهد على أثر البيئة في توجهات أفرادها حين قال : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء "[١] ، ثم يعقب عليه ابن حجر بقوله : "الكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه بل إنما حصل بسبب خارجي، فإن سلم من ذلك السبب استمر على الحق ".[٢] فهذا الحديث يدلنا على أثر البيئة الخارجية في الفرد ، وكيف أنها تحدد اتجاهاته المستقبلية . فالدين هو أهم مقومات بناء الشخصية ، فإذا كان عرضة للتغيير بسبب مؤثرات خارجية ، فما عداه أولى بأن يتأثر بهذه المؤثرات . وهذا ما يقرره علماء النفس ، إذ "تستند التربية في هذا المجال إلى فهم صحيح للعوامل المؤثرة في تكوين الشخصية، ونموها ، كعوامل الوراثة ، والعوامل البيئية الطبيعية (المادية) والاجتماعية ، وطبيعة وقوة المثيرات الثقافية ، وطبيعة ومستوى الخبرات والمؤثرات الأخرى "[٣]، فشخصية الفرد هي نتاج ظواهر خارجية أثرت في تكوين هذه الشخصية،مع الاستعداد الذاتي . فإذا عرفنا أن الأسلوب هو الفرد ، أو كما يقول بيفون " الأسلوب هو الرجل نفسه "[٤] "بهذا تكون التجربة الفنية أو الصورة الأدبية تعبيرا

---

[١] فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ٣ باب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين ص ٢٩٠
[٢] المرجع السابق ص ٢٩٢ .
[٣] مدخل إلى مبادى التربية ، محمد عكيلة ، سمير هوانة ، حسن طه ، دار القلم ،الكويت ،١٩٨٤ م ، ط١ص ٢٦
[٤] المدخل في دراسة الأدب ـ مريم البغدادي ، المملكةالعربية السعودية ، جدة ، ١٩٨٢ ، ط١ ، ص ٤٤

غير مباشر عن شخصية الأديب . حيث إن الآثار والنصوص تصدر مباشرة عن نفس الأديب . وعلى هذا يكون الأدب سجلا للتاريخ الخاص بالأديب ، وصورة لشخصيته بوجه عام" [١]. فإذا أردنا أن نبحث عن سر توجه البردّوني إلى الأسلوب الساخر ، كان ضروريا أن نبحر في أعماق تجربته الثقافية لنكشف عن أسباب هذا التوجه ، ونحاول أن نجد مبررات لاتّخاذه الأسلوب الساخر منهجا وأسلوبا يتناول فيه أغراضه الشعرية. ويعبر به عن قضاياه الشعرية . فإذا رجعنا للبردّوني لتتبع أثر هذه الثقافة التي وجهته هذه الوجهة الساخرة ، فيمكن أن نقسم المؤثرات الثقافية التي أسهمت في بناء شخصية البردوني الساخرة إلى:

١ ـ أثر المجتمع :

لا يستطيع الإنسان العيش بمفرده ، فهو يحتاج إلى المجتمع الذي يتفاعل فيه سلبا، وإيجابا " يقول أرسطو إن الإنسان كائن اجتماعي لا يعيش إلا في مجتمعات . والإنسان اجتماعي لحاجته . لأن الإنسان يولد وهو أكثر الكائنات الحية ضعفا . فهو لا يستطيع تلبية احتياجاته ولا توفير الحماية لنفسه ويحتاج لمدة تطول كثيرا بالنسبة للمدة التي يحتاجها غيره من الكائنات الوليدة حتى يشتد ساعده ويستقل عن الاعتماد على غيره" [٢] إذا كان الإنسان محتاجاَ إلى المجتمع كمؤثر في بناء شخصيته ، فإنّ طبيعة أفراد المجتمع ، وطرق عيشهم تؤثر في شخصية الفرد ، وفي تعامله مع الأحداث ، وبناء طرائق التفكير ، وقد عُرف عن أهل اليمن أنهم أصحاب رقة في القلب ولين في الفؤاد، قال صلى الله عليه وسلم : " أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً

[١] **المرجع السابق ص ٤٤**
[٢] **مدخل إلى مبادئ التربية ـ ص ٩٥**

الفصل الأول :وافع السخرية عند البردّوني أ / الدوافع الذاتية

وأرقّ أفئدةً ، الإيمانيمانٍ والحكمة يمانية والفقه يمان " [1] ، كان لهذه الرقة أثرها في تعامل أهل اليمن مع الأحداث تعاملا يميل إلى الفكاهة ، بدل الصدام ، فعرفوا بنكاتهم ، وتعليقاتهم الساخرة . فإن توجهنا إلى ذمار موطن البردّوني ، وجدنا أن أهلها خاصة يمتازون بهذه الروح المرحة ، فهم أهل نكتة حاضرة في تعاملهم مع الأحداث ، إلى درجة أنها أصبحت رمزا للمنطقة،ودلالة فارقة في شخصية الذماري ، فارتباط الفكاهة بالذماري ، ارتباط وثيق ، كارتباط جحا بها في ا لموروث الأدبي العربي ﺑﻬذه النشأة الذ ً مارية كان لها دور في بناء شخصية البردّوني الساخرة فيما بعد ، فقد سار في طرح فكره ، وأدبه على النمط الذي تعود عليه وعايشه منذ نعومة أظفاره . سخرية يجسد فيها روح المعاناة بقلب ضاحك باك . فعندما يدخل ذلك اللص المسكين داره بحثا عن غنيمة ، يشكره البردوني لأنه لم يزعجه بالدخول .

شكرا دخــلت بلا إثارهْ وبلا طفـــور أو غرارهْ

لما أغرت خــنقت في رجليك ضوضاء الإغارهْ

لم تسلب الطين السكون ولم تُرِعْ نوم الحـــجارهْ

كالطّيف جئت بلا خطى وبلا صــدى وبلا إشارهْ [2]

دخول أثار إعجاب البردّوني لكنه سرعان ما بدأ يتحسر على هذه البراعة أن ترجع صفر اليدين :

أرأيت هذا البيت قز ما لا يكلفك المهــــــارهْ

فأتيته ترجو الغنـــا ئم وهو أعرى من مغارهْ

[1] صحيح مسلم ج ١ ص ٥٢ ـ ٥٣
[2] ديوان البردوني ج ١ ص ٤٩٧

لم يكتف البردّوني بهذا القدر من سخريته بهذا اللص الغبي ، وإنما راح كعادة أهل ذمار يشمت به ، ويتندر عليه . ويعتذر له ،

يالص عفوا إن رجعـ ت بدون ربح أوخســـاره

لم تلق إلا خــــــيبة ونسيت صندوق السجاره

شكرا أتنوي أن تشرفنا بتكرار الزيــــــــــاره [1]

لقد غادر ذلك اللصّ، لكن البردوني يعيش مأساة أخرى مع حارس المسئول الذي أوصل له آخر التحريات .

سيدي هذي الروابي المنتنه لم تعد كالأمس كسلى مذعنه

(نقم)[2] يهجس يعلي رأســه (صبر)يهذي يحدّ الألسنه

(يسلح) [3]يومي يرى ميسرة يرتئي (عيبان) يرنو ميمنه

لذرى (بعدان)أنها مُقْلـــة رفعَتْ أنفا كأعلى مـــئذنه [4]

ليأتي رد ذلك المسئول في غاية الغرابة والعجب !

اقتلوهم واسجنوا آباءهم واقتلوهم بعد تكبيل سنه [5]

لم يتوقف أمر الحاكم عند هذا الحد من السطحية ، بل زاد شناعة ، وجهلا في جوابه الجديد على الحارس :

أمركم لكن ! (ولكن) مثلهم سيدي هذي أسامي أمكنه [6]

---

[1] نفس المرجع السابق ج١ ص ٤٩٧
[2] (نقم ، صبر، عيبان ، بعدان) أسماء جبال في اليمن .
[3] ربوة بين منطقة صنعاء والمناطق الوسطى
[4] ديوان البردّوني ج١ص٧٤١
[5] نفس المرجع ج١ ص ٧٤١
[6] نفس المرجع ج١ ص ٧٤٢

لتكتمل فصول سخرية البردوني بتلك العنجهية ، والحذلقة غير المنطقية من المسئول الذي أخذته العزّة بالإثم ، وهو يحاول تفسير جهله بخزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان .

(صبر)وغدٌ أنا رقيـــته كان خبازا أَحِلْهُ مِعْـــــجنه

(نُقمٌ) كان حصانا لأبـــي اطحنوه علفا للأحصـــــنه

اُقتلوا (يسلح) ألفي مـــرة اسحبوا عيبان حتى (مؤسنه)[1]

اقلعوا (بعدان) من أعراقه اُنقلوا نصف (بكيل مقبنـــه)

أمركم لكن ! ولكن اِقطعوا رأسه دع عنك هذي اللكننه [2]

فإذا انتقلنا إلى حماسياته ، سنجده يتحدث عن حماسيات يعرب الغازاتي ، ومن عنوان القصيدة تبدأ رحلته الساخرة ، فهي حماسة غازية لا بقاء لها على أرض الحقيقة ، ليرتحل بعد ذلك وفي مفارقات عجيبة بين ما كان وما صار .

نحن أحفاد عنتره نحن أولاد حيـــدره[3]

كلنا نسل خـــالد والسيوف المـــشهره

يعربيون إنـــما أمّنا اليوم لـــــندره

أمراء وفوقـــنا عين ريجن مؤمّـــره

وسكاكيننا علـى أعين الشعب مـخبره

نحن للمعتدي يد وعلى الشعب مجزره [4]

---

[1] (مؤنسة ، مقبنة ، بكيل) أسماء مناطق باليمن .
[2] نفس المرجع السابق ج١ ص ٧٤٢
[3] يقصد بحيدرة (علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)
[4] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٠٧٧

لتستمر بعد ذلك السخرية عندما يثبت تلك البطولات التي يفخر بها العربي ، متنازلا عن دوره الحقيقي الذي يتطلب منه بطولة حقيقية .

في الملاهي لنا الأمام في الحروب لنا المؤخره

نحن في اللهو أقويـاء وفي الحروب مسخـــره

إننا أجبن الـــــورى عندما الحرب مسعــــره

ونمور على الظبـــاء وعلى الصقر قُبـــــرة

نحن في الهزل وثبة نحن في الجد قهقـــــره [1]

فعندما يجتمع مطلع القصيدة (نحن أحفاد عنتره) و (نحن أحفاد حيدره) ،

(وكلنا نسل خالد) ، و (ونسل السيوف المشهرة) يكون هناك تقابل محزن في تبدل الحال من زمن الشجاعة والعزة إلى زمن الذل والهوان،والرضوخ والاستسلام ، بل صرف الهمة والبطولة إلى أمور لا تتناسب مع ذلك الدور العظيم الذي وكلت به الأمة .

فيصبح التقدم للأمام في الملهى دون الحرب ، وتصبح القوة في اللهو دون الجد ، وتصبح البطولة في الكرة دون الحرب .

هذه الروح الساخرة التي كان البروّني يبثّ ها في كثير من قصائده أتت ، دليلا على أن هذه الروح التي تشبع بها البردّوني منذ صغره ، إنما هي تجربة حياة تعوّد البردّوني أن يعيشها في تفاصيل حياته ، مثله كمثل أي ذماري،يقابلك بتلك الروح المرحة التي تبحث عن الحق في صورة ابتسامة، لأن الأدب لايستطيع مهما كان فرديا أو ذاتيا ،

[1] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٠٧٨

ومهما بلغت درجات الوجدان والعاطفة،ومهما حاول أن يكون تعبيرا خالصا عن تجربة الأديب وروحه، ومزاجه ، لا يستطيع بأي حل من الأحوال أن يعيش منزويا ، أو بعيدا عن الحياة [١] .

٢ ـ أثر التراث :

نشأ البردّوني في أحضان التراث العربي، فنهل من نبع أبي تمام ،وصاحب المتنبي في بحثه عن المُلْك ، وعاش تجربة المعري بكل تفاصيلها،وجالس أبا نواس وصافاه ، فكل شاعر عربي لا بد أنه تأثر بالشعراء العرب في العصور السابقة ،فيبني بينه وبينهم جسوراً من العلاقات الثقافية ، يستطيع من خلالها " أن يعيش في جلودهم ، ويرى بأبصارهم ، وأن يحس بقلوبهم ليشعر معهم بما كانوا يشعرون به ، ومن هنا يلتقط الضوء ، وبعد ذلك يترك نفسه لوجدانه هو ، ولعصره هو ، ولظروفه هو ، وكيفما وجهته موهبته ، فليكتب ، ولكن ، بعد أن يكون قد زوّد نفسه بزاد انطوى في اللاّوعي وساعده على إنشاء شعر جديد ، وفي الوقتفسنه يَكوّن شعرا عربيّا يكون فصلا من فصول ديوان الشعر العربي " [٢] لذلك وجدنا البردّوني يتأثر بما قرأه خلال مسيرته العلمية ويقاسم كل الثائرين حياتهم ، وهمومهم ، فلاقت تلك الشخصيات الثائرة بذرة ثورية في نفس البردّوني ، فسقتها بماء السخرية .لتنتج شعرا رافضا لواقع أليم عاشه المجتمع ،رافضا كل طرق الاستبداد التي عانى منها الفرد البسيط في ظل تسلط المسئول ، والفرد القوي . الأمر الذي جعل البردّوني يستخدم تلك الرموز التاريخية في نقض ذلك الواقع المرير الذي يعيشه ، ويحاول من خلال

---

[١] **الأدب وقيم الحياة المعاصرة ـ محمد العشماوي ، دار النهضة ، ١٩٨٠ ـ ص ١١**
[٢] **مجلة الموقف ـ حوار مع الدكتور زكي نجيب محمود ـ العدد١٣/ ١٤ ـ ص ١٧٥**

طرح تلك الأسماء أن يربط المتلقي بمعاناة هذه الشخصيات . فالتجربة الإنسانية ، مهما اختلف زمانها ، ومكانها تبقى معينة لفهم الواقع،بل ومساعدة في التخلص منه ، وما الواقع سوى ركام ماض في دورة الحياة ... والشاعر المبدع يرى العالم مسرحا تتكرر فيه التجربة الإنسانية على مر الدهور [1] ، فمهمة ذلك المبدع هو تلقف تلك الرموز ، وربطها بالواقع ، ربطا يجعل منها جسرا يعبر من خلاله المتلقي إلى عوالم جديدة بعيدة عن واقعه ، ليقوم بعد ذلك بتلك الإسقاطات التي تعيده بشكل غير مباشر إلى واقعه ، بعيدا عن كل المضايقات . وهو في رحلته هذه سيجد مئات الأصوات رهن تصرفه الفني، ترن في وجدان المتلقي وسمعه ، بأبعاد من تجربته المعاصرة ، وهذه الأصوات لها في سمع المتلقي صدى لا يخطئ وجدانه التقاطه [2] مما يدفعه إلى الحركة ، وكسر الروتين الرهيب الذي يقيده ، والتمرد على ذلك الواقع الذي سلبه حقه في الحياة ، فالشاعر في رصده الواقع ومزجه بالماضي ، إنما يتعمق تلك النفس الإنسانية الدافعة للأحداث [3]، فهو يتخذ تلك الشخصية بوابة للعبور إلى نقد الواقع المعاش ، فتلك الصرخة التي أطلقها البردوني مخاطبا أبا تمام ، إنما هي صرخة ألم ، وضجر بذلك الواقع المرير ، فشخصية أبي تمام العربية التي انفجرت بعزة الإسلام وبشهامة العربي مؤيدة للمعتصم في دك حصون الروم ، تنظر بعين الحسرة إلى واقع العروبة اليوم ، في مفارقات بين الحالين .

ماذا جرى .. يا أبا تمام تسألني ؟ عفوا سأروي .. ولا تسأل .. وما السبب

[1] عبدالله البردوني حياته وشعره ـ ص ٦٨
[2] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي ، على عشري ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٧٨ م ، ط١ ـ ص ١٩
[3] عبدالله البردوني حياته وشعره ص ٦٨

يدمى السؤال حياء حين نسأله كيف احتفت بالعدى حيفا أو النـــــــقب

من ذا يلبي ؟ أما إصرار معتصم كلا وأخزى من الأفشين ما صـــــــلبوا

أليوم عادت علوج الروم فاتحة وموطن العرب المسلوب والســــــلب

ما ذا فعلنا ؟ غضبنا كالرجال ولم نصدق .. وقد صـدق التنجيم والكــتب[1]

تلك المفارقات التي تنقل المتلقي من ذلك الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر ، ويعيشه معه المتلقي إلى تلك الحياة العزيزة التي عاشها أبو تمام .

ليذوب بعد ذلك البردّوني في تجربة ذاتية مع أبي تمام يبثه فيها أحزانه وآلامه ، لأنه وجد جسور التشابه تمتد بين ضفتيهما .

حبيب هذا صداك اليوم أنشــــــــده لكن لماذا ترى وجهي وتكتـــــئب

ماذا أتعجب من شيبي على صغري ؟ إني ولدت عجوزا .. كيف تعتجب ؟

واليوم أذوي وطيش الفن يعزفـــني والأربعون على خدّيّ تلـــــــتهب

كذا إذا ابيض إيناع الحــــياة على وجه الأديب أضاء الفــكر والأدب [2]

ليخرج متفائلا بغد أفضل لأن مع اشتداد الأزمات يأتي الفرج .

ألا ترى يا أبا تمام بارقنا (إن السماء ترجى حين تحتجب) [3]

في هذه القصيدة صرح البردّوني بشخصيته ، وأخذ يحاورها ، ويناقشها ، ليرسم تلك الصورة العكسية بين ماضى الأمة وحاضرها ، مع ذلك الأمل الذي يترجى أن يعود لأن شدة تأزمت ولا بد من يوم يكون فيه الفرج .

---

[1] ديوان البردوني ج١ ص ٦٢٤
[2] نفس المرجع السابق ص ٦٢٨
[3] نفس المرجع السابق ص ٦٢٩

وقد يلتحم البردّوني بشخصية تراثية أدبية ، ويتحدث بلسانها إلى شخصية أخرى ، ليحكم القناع الذي يتخفى خلفه ، ويتيح لنفسه قدرا من الحرية ، وهو في الحقيقة يسقط عليها واقعه القاسي لينأى عن المضايقة والإرهاب ، فقد التحم البردّوني بالمتنبي زمنا ولسانا ، من خلال تقليده الفني لمعارضته ، ليواسي أبا نواس في محنته مع الرشيد والأمين ، في حين أنه يسقط عليه واقعه ، فقد نشرت السلطة الإمامية إرهابها باسم جلد باعة الخمر وشاربيه سنة ١٣٧٩هـ في اليمن ، والشعب محروم من الخبز ، ولا يمتلك الخمر سوى الأئمة وبطانتهم ، وإنما القرار لفرض الحكم قسرا ، والإيحاء بظلال الحكم الإسلامي ، ولتدمير فئة المثقفين الرافضين للتخلف ، وتشويه مكانتهم لدى العامة بهذا الاتهام البغيض .[1]

وقد جاءت معارضته للمتنبي في قصيدته :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصّه كلـــــهم منـ ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا[2]

ليكون موقف البردّوني مختلفا عن موقف المتنبي ، فعندما يجد المتنبي نفسه مستسلما لمصائب الحياة ، مفلسفا لها نجد أن البردوني يرفض الاستسلام للزمان بل ويقول إنّ باستطاعة الإنسان قيادته و التغلب عليه .

لو تسامت عقولنا عن هـوانا لهدينا الهدى وقدنا الزمـــانا

ولسرنا وخطونا يلد الفـــجـ رالمغنّى ...وينبت الرّيـــحانا

لو تلظت قلوبنا بسنى الحبـ ب لما عانت العيون الدخـــانا

[1] عبدالله البردوني حياته وشعره ص ٧٧
[2] ديوان المتنبي ـ الشيخ ناصيف اليازجي ـ ـ ج ٢ ص ٩٠٠

لو كبحنا غرورنا لمــــلأنا من عطايا الوجود وسع منانا [1]

لتبدأ بعد ذلك مفارقات البردوني الساخرة ، التي تصف تراجع المجتمع ، وكأنها الوصفة التي سيستشفي المجتمع عندما يطبقها .

ونسمي لصّ الحياة شـــجاعا ونسمي عفّ اليدين جـــبانا

نحن غرس الإله يحصده اللـ ه لماذا تعيث فيه ... يـــدانا ؟

مالنا نسبق الحمام إليـــــنا وهو أمضى يدا وأحنى بـنانا ؟

ونخاف العدى وحين نعـــادي هل درينا أنّا خلقنا عـــدانا

لو نفضنا شرورنا لرأيـــنا أوجه الخير في الضياء عيانا

نحن نبدي عيوبنا حين نرمـــي بالخطايا فلانة أو فـــلانا

نحن لو لم نكن أصول الخـطايا ما رأينا ظلالها في ســوانا

كم سألنا التفتيش عن جيفة الإثـ ـم وسرنا والإثم يحدو خطانا

وهتكنا مخابئ الإثم في الـــحيـ ـي وعدنا نفتش الأكــــفانا [2]

ليقف بعد ذلك مع تلك المفارقة التي جعلها بين الشعب المتمثل في شخصية أبي نواس، المحروم ، المعذب ، من أجل راحة القسيم الآخر وهو الحاكم المتمثلة في شخصية (الرشيد ، المامون ، الأمين) التي تجد كل المتع ، بل وتتمتع بإذلال ذلك المعذب المسمى شعبا .

ما ترى يا أبا نـــواس ؟ ترى ال أكواب ملأى وتحتسي الحرمانا

تشتـــهي مدامة ... لم تـــجدها فتغني خيالها الفتـــــانا

---

[1] ديوان البردوني ج ١ ص ٣٤١
[2] ديوان البردوني ج ١ ص ٣٤٢

لو وجدت الرحيق ما ذبت شجوا وتحرقت في المـــــنى أشجانا

شاعر الحب حين يهـــجره المحـ بوب يفتن في الحــــنين افتتانا[١]

لقد فلسف لنا البردّوني ، تعشق أبي نواس للخمرة ، فهو عندما حرم منها بدأ يحن للقائها، لأن المحبّ إذا هجره الحبيب تعلق به ، وافتتن به أشد الافتتان ، لتأتي تلك المقارنات بين الحاكم والمحكوم ، فأحدهما يتمتع بكل ما يريد ، والآخر يعيش على الأمنيات ، ويتضور ألما وجوعا .

ملك يرضع الدّنان كما يـــــــهـ وى وأنت الذي تغني الدّنــانا

والأمين النديم يمنعك الخـــــــمـ ر ويحسو وتنحني ظمــآنا

وهو في القصر يحتسي عرق الشعـ ب ويروي القيان والغلمــانا

ويرى انه أمين على الديـــــــــ ن وإن ضيع الرشاد وخـانا

كيف يحمي دين الإله ظــــــــلوم يتحدى الإله والإنســـانا

يدعي عصمة الملائكة الطـــــــهـ ر ويأتي ما يخجل الشيطانا [٢]

بهذا يخرج البردّوني بتلك الصرخة التي تقول للحاكم لا تحرم علينا شيئا نحن لا نجده، بل حرم على نفسك ظلمنا وتعديك على حقوقنا .

إن المتأمل يجد أنه أجاد في استغلال ثقافته ، عندما استطاع أن يوظف ثقافته في خدمة إبداعه الشعري فهناك الكثير من الثقافات المعاشة التي حولها البردّوني بمقدرته الفنية إلى نمط شعري خاص به . فمن الميسور عليه أن يطوع أصعب الثقافات للفن

[١] نفس المرجع السابق ص ٣٤٤

[٢] نفس المرجع السابق ص ٣٤٥

الشعري كما فعل المتنبي الذي قعّد لشعره الفلسفة الدمويّة والرؤية القرمطية ، فأتى بثقافة جديدة في [1]نسيج الشعر .

لم يكتف البردّوني بالإبحار في موروثه الثقافي شعرا ، بل تعدى ذلك إلى الكتابة النثرية ، فقد كتب دراسة لشعر الزبيري،أستاذه الذي تعلق به كثيرا، بل مثله الأعلى، والذي قاد فكره الثوروي ليكتب عنه دراسته التي كانت ثورية حتى في عنوانها ، حيث أطلق عليها " من أول قصيدة ، إلى آخر طلقة ، دراسة في شعر الزبيري "

كل هذا الموروث الثقافي الذي نهل منه البردّوني مع ما عاناه شكل تلك الشخصية الثائرة ، التي جعلت أهم سلاح تدافع به عن همومها وأحزانها ، هو سلاح السخرية التي رفع لواءها البردّوني في وجه مصاعبه التي نغصت عليه حياته ، لتكون ذلك البلسم الذي يمر على جراحه فيسكنها .

قلبي القلب إن بكى رقّــــــص الـ	دنيا بكاه وحول الدمــــع فنّا
دمعة الفن بسمة في شــــــفاه الـ	خلد أصفى من الصباح وأسنى
في ظلال الربيع قطـــــــرات أنــ	فلي نشـــيدا أرقّ منه وأحنى
وعصرت الشجون في الروضة الـ	غنّا لحـــــونا أندى وفنا أغنا
أنا أشدو لكلّ قلب طــــــــروب	أنا أبكي لكل قلــــــب معنى [2]

هذه الفلسفة البردّونية في تناوله للشعر ، يرفض الظلم ، ويغني للحياة بكل أشكالها

[1] من أول قصيدة إلى أخر طلقة ـ عبدالله البردّوني ، دار البارودي ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ط٣ ـ ص ٣٠٧
[2] ديوان البردوني ج١ ص ١٢٢

ب/ الدوافع الخارجية :

١ـ أثر الحياة السياسية :

قبل أن نلج في أثر الحياة السياسية في توجه البردوني الساخر كان من الواجب على البحث أن يعطي فكرة موجزة عن تلك الفترة الزمنية التي ترعرع فيها البردّوني وعن أهم الأحداث التي صاحبت رحلة البردّوني الحياتية . فبعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى اختتمت اليمن " عملية تحررها في شمال البلاد والاعتراف بسيادتها في العام التالي " [١] في هذه الفترة كان اليمن على موعد مع انتهاء " الدور العثماني (الثاني) في اليمن ، لتدخل حقبة جديدة في ظل حكم الإمام يحيى حميد الدين الذي كان أطول من حكم من أئمة بيت القاسم ، كما استمر الوجود البريطاني في عدن وجنوب البلاد " [٢]انتهى العصر العثماني ليبدأ عصر كان اليمنيون يتوقون إلى أن يكون خيرا من سابقه ، لكن هذا الشعب استيقظ ليجد نفسه أمام نفس الوضع السابق " الذي انتهج سياسة الرجل الديني من أول يوم للاستقلال الوطني " [٣] ليجد اليمن نفسه في يد رجل " تميزت سياسته بالانعزال والانغلاق مما تسبب وكما يرى البعض من المفكرين في عزل اليمن عن بقية العالم ، وهذا ما صوره الشاعر محمد محمود الزبيري في روايته مأساة واق الواق التي تناول فيها عزلة بلاده عن العالم ، وحلم فيها بجنة منتظرة ـ مدينة فاضلة ـ وقد تخلصت من كل ما كانت تقاسي منه

---

[١] تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ـ حسين العمري ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١ م ، ـ ص ٢٠١

[٢] نفس المرجع السابق ص ٢٠١

[٣] ابن الزبير ـ ـ ص ٣٨

صنعاء فلا ظلم ولا اضطهاد ، ولا قسوة ، ولا جبروت ، يعيش الإنسان فيها طليقا ، كالطيور والنسائم والزهور المتلاحقة من غصن إلى غصن وتلك تشبيهات أطلقها الزبيري في روايته ، وهو يرى أن تلك المدينة قائمة بالفعل ، ولكن في العالم الآخر ، حيث ينعم بها الشهداء، أما صنعاء والمدن اليمنية الآخرى ، التي ترضخ للظلم والقتل والنزاعات ، فهي مدن ميتة بالفعل ، وقد أقام لها في الجنة متحفا بشريا ، يدل على حس تشكيلي عميق ، سماه ، مقابر الأحياء " [١]

لقد رأى هؤلاء المؤرخون أن المسئول سيطر على كل مناحي الحياة في اليمن سيطرة كاملة ، وجعله يعيش في تاريخه ، ولا ينفك من ربقة الماضي ، فمن يزور اليمن في تلك الفترة يجد أنه يعود " فجأة إلى القرن الثالث عشر الهجري ، فلا مدارس ، ولا جرائد ، ولا أدوية ، ولا أطباء ، ولا مستشفيات في اليمن ، إن المسئول هو المعلم والمحامي والكاهن " [٢] استمر النظام كما يرى بعض المؤرخين يمارس تلك السيطرة العنيفة على الشعب ، ويضطهده بكافة الأشكال من أجل ذلك نشبت "الحرب الأهلية بين اليمنيين من أجل إسقاط فاطمي ليحل محله فاطمي آخر " [٣] كانت السيطرة الإمامية متحكمة بجميع الأمور " فقد أصبحت الثقافة الإمامية هي سيدة الميدان سياسيا " [٤]فكان تنافس هؤلاء الأئمة فيما بينهم للحصول على الحكم، وكانت أفضل الطرق هي السيطرة على الشعب ولم يمكن أن يتم لهم ذلك إلا إذا نشروا بينهم

---

[١] شعر عبدالله البردوني ـ محمد أحمد القضاة ـ ص ١٢

[٢] ملوك العرب ـ امين الريحاني ـ مطبعة يوسف صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٢٤ م ـ الجزء الأول ـ الطبعة ٢ ـ ص ١٦٧ بتصرف

[٣] شعر عبدالله البردوني ـ أحمد القضاة ـ ص ١٦

[٤] اليمن الجمهوري ـ عبدالله البردوني ـ ٢٠٠٨ م ، ط ٦ ، ص ٢٩

الجهل لذلك " بناء على ما سبق من أقوال هؤلاء المؤرخين يتضح أن نظام الحكم في تلك الفترة ركز على تجهيل أبناء الشعب ، كي تسهل السيطرة عليهم فكريا ليتم تسليطهم على الطوائف الآخرى ، كما ازداد لديهم الانتماء القبلي المسلح الذي نماه أكثر الأئمة بجعلهم يتناحرون فيما بينهم ، فلم يوجد الأئمة في مناطقهم أية مشاريع اقتصادية تشغلهم عن الحرب والعصبية . واستمرت هذه السياسة بهذا الشكل إلى أن جاءت ثورة عام ١٩٤٨ م لتضع حدا لهذه السياسات التي أخرت اليمن عن ركب الحضارة علميا وثقافيا واقتصاديا " [١]

بدأ عهد الثورات اليمنية ، وتفاءل الشعب بها خيرا غير أنها جاءت على نفس النسق السابق ، فما تغير هو اللقب أما طريقة العيش والتعامل مع الأحداث فبقيت على نفس المنهج السابق فكأنّ الزمان لم يتغير ، وكأن الأحداث تتكرر ، والتكرار الزمني يعيدك إلى نفس الفترة السابقة لأنه " يجعل الأزمان كلها زمنا واحدا ، وبهذا يفقد تأريخيته ، لأن التاريخ تحرك دائم يتكون من جملة التغيرات الإنسانية في الزمن ، وتغير الزمن في رؤية مفجري تغييراته ، فليس التاريخ مجرد اختلاف الليل والنهار ، فالتحرك التغييري ، وتكرار المتشابه يشكلان الفرق بين التأريخ كصيرورة ، وبين الزمن كتعاقب أوقات " [٢] لم تكن كل الثورات إلا إحساساً بالظلم ولد انفجاراً ليس محسوب الخطى " المهم أن المرارة من الإمام يحيى كانت مؤهلا كافيا للانتماء إلى الثوار ، بغض النظر عن نوعية أفكار المنتمي . "[٣] لم يكن أمام الثوار أي برنامج بديل

[١] شعر عبدالله البردوني ـ محمد القضاة ـ ص ١٦ بتصرف
[٢] اليمن الجمهوري ـ عبدالله البردوني ـ ص ٤٢١
[٣] نفس المرجع السابق ـ ص ٤٢٤

يجعلونه هدفا يسيرون إلى تحقيقه ، إنما هي رغبات لتغيير الوضع دون السؤال عن كيفية قيادة الدفة عند التغيير ، " لأن السخط وحده على أي وضع لا يكون سببا جامعا لإنهائه دون تبني بديل أفضل ، قد يكون السخط ثورة دائمة ، ولكن تحويله إلى وسيلة تغييرية يحتم رؤية الغاية من خلال الوسائل ، فلا يكفي السخط على الإمام يحيى بدون نظرية تغيير "[1]

لقد تغير الثوار ، وتغير الحكام لكن الوضع السائد في البلاد لم يتغير ، بل ازداد في بعض الأحيان سوءاً أكثر مما كان عليه في الماضي ، لقد قسم النظام الحاكم في البلاد الشعب إلى فئتين :

فئة تحكم البلاد ، ومعهم وزراؤهم ، وحاشيتهم ، يعيشون في أرغد عيش ، وفئة يتسلق على أكتافهم هؤلاء الحكام في وصولهم إلى تلك الكراسي ، ويذيقونهم في مسيرتهم أنواع الذل والمهانة ، ويجعلونهم في شظف من العيش ونكد . هي تلك الحياة السياسية التي عاشها البردّوني ، وترعرع في خضمها ، وهو يشاهد تلك التحولات السياسية التي تأتي وتذهب ، والشعب قابع في مكانه لم يحصل على شيء من كل هذه التحولات ، والتغيرات التي حصلت على وجه السياسة اليمنية في تلك الفترة . لقد سكن اليمن قلب البردّوني ،فكان نفسه التي تلوح بين جنبيه ، يغنيه لأنه عشقه الأول ، ويسكب عطر قصيده أنشدة في ربوع أيامه ، يصوغ من حياته لحنا يطرب ذلك المحبوب :

أعندي لعينيك يا موطني سوى الحرف أعطيه سكبا وغرف

[1] نفس المرجع السابق ـ ص ٤٢٤

أتسألني : كيف أعطيك شعرا وأنت تؤمل دورا وجـــــرف

أفصل للياء وجها بهـــــيجا وللميم جيدا وللنون طـــــرف

أصوغ قوامك من كل حسن وأكسوك ضوءا ولونا وعرف [1]

لقد قدم البردّوني حياته مقابل أن تحيا يمنه ، قدم نفسه لكي يراها في أحلى حلة ، كل ما يتمناه أن يرى تلك الروابي وقد اكتست ثوب الحرية ، و تزينت بكرامة اليمنيين ، من دون أن يكون لأحد عليهم يد فضل ، حتى لوكان ثمن ذلك أرواحهم فهم يجودون بها دون تردد :

حدي سكينا حـــــــدي عنقي أغلى ما أهـــدي

أرجوك احتزي عمري أضحى شيئا لا يـجدي

يعلو مشنوقا يهـــــوي كرماد النعش الهـندي

خبزي من كفّيْ غيـري غيري يبنيه زنـــــــدي

هيا ارمي رأســي عني وأريحيني من جلـــدي

ماذا تخشين ؟ اقتـــربي الحسن الوحشي يعـــدي

كوني حبا قـــــــتالا ولتبتدئي من عنـــــــدي

أرديني كي لا يـــلقى مستهدفني من يــــردي

من لا يردي لا يـحيا أو تنتظرين (المهدي) ؟ [2]

إنها الحياة التي يريدها البردوني ، حياة لا تكون إلا بالتضحية ، فلا تنبت الأرض إلا من خلال سقيها ، والعناية بها وتقديم التضحيات من أجلها .

---

[1] ديوان البردوني - ج٢ ص ٩٤١

[2] نفس المرجع السابق ص ٨٦٣

اجتثيني من عـــرقي يخضر مكاني بعدي

تورق ذراتي خـــيلا أقلاما حبا رعـــدي

من كل حصاة ينـــمو فلاح يزهو جنـــدي

من تحت ركامي يحبو آتيك يغني عهـــدي

قتلي يبدي من ســري ما أعياني أن أبــدي [1]

عاش البردّوني مأساة شعبه مع المسئول ، ليعبر عن تلك الحالة التي سيطرت على الشعب وهو يعيش بلا أمل ، مسلوب الإرادة ، فكل خطواته تائه ، في طريق لا تعرف نهايته

أخي صحونا كله مـــــأتم وإغفاؤنــــــــا ألم أبكـم

فهل تلد النور أحلامـــــنا كما يلد الزهرة الــــبرعم

وهل تنبت الكرم وديـــاننا ويخضر في كرمنا المـوسم

وهل يلتقي الريّ والظــامئو ن ، ويعتنق الكأس والمبسم

لنا موعد نحن نســـعى إليه ويعتاقنا جرحنا المـــؤلم

فنمشي على دمنا والطــريق يضيعنا والدجى معـــتم

فمنّا على كل شبر نـــــجيع تقبله الشمس والأنـــجم [2]

كل هذا التخبط الذي يعيشه الشعب في ترحله نحو الحرية ، وضياع كل الطرقات أمام جبروت الحياة ، وظلم المتسلط ، يعيشه البردوني ومن خلفه الشعب بكل تفاصيله ، وبكل مسبباته ، وكأنه ينقل لنا صورة معبرة عن أوضاع تلك الفترة ، الفترة التي

[1] نفس المرجع السابق ص ٨٦٣
[2] ديوان البردوني ج ١ ص ٢٣٦

امتزجت بمعاناة الشعب ، وكانت شاهدا على طغيان النظام ، واستبداده ، الاستبداد الذي حول الحياة إلى جحيم لا يطاق :

سل الدرب كيف التقت حولنا ذئاب من الناس لا ترحـــم

وتهنا وحكامنا في المـــتاه سباع على خطونا حـــوّم

يعيثون فينا كجيش المـغول وأدنى إذا لوح المـــغنم

فهم يقتنون ألوف الألـوف ويعطيهم الرشوة المـعدم

ويبنون دورا بأنقـــاض ما أبادوا من الشعب أو هدموا

أقاموا قصورا مداميــكها لحوم الجماهير والأعظـم

قصورا من الظلم جـــدرانها جراحاتنا ابيضّ فيها الـدم

أخي إن أضأت قصور الأمير فقل تلك أكبادنا تـضرم [1]

لقد رحل البردّوني في بيان أوزار ا لنظام في ذلك الوقت ، لكنه لم يغفل عن فلسفة هذا الطغيان حين راح ، يعلل بعض أسباب تجبر المسئول ، وخضوع المحكومين :

رأوا هدأة الشعب فاستذأبوا على ساحة البغي واستضغموا

وكلّ جبان شـجاع الفؤاد عليك ، إذا أنت مســتسلم

وإذعاننا جرأ المـفسديـ ن علينا وأغراهم المـــأثم

أخي نحن شعب أفاقت مناه وأفكاره في الكرى تحــلم [2]

لقد تيقن البردّوني أن الشعب هو من سلم قيادته للمستبد ليحركه كيف يشاء ؟

أعذر الظلم وحملنا الملاما نحن أرضعناه في المهد احتراما

[1] نفس المرجع السابق ص ٢٣٦ـ ٢٣٧
[2] نفس المرجع السابق ص ٢٣٨

نحن دللناه طفلا في الصبا وحملناه إلى العرش غــــــلاما

وبنينا بدمانا عرشـــــــه فانثنى يهدمنا حين تســــــامى

وغرسنا عمره في دمـــنا فجنيناه سجونا وحِــــــــماما

لا تلم قادتنا إن ظـــلموا ولُمِ الشعب الذي أعطى الزماما [1]

لقد تّعرف البردّوني على سبب ذلك الطغيان فأخذ على نفسه أن لا يسير مع الركب السائر ، وإنما اختط لنفسه منهجا أراد فيه أن يكون مع أولئك الذين يضيئون الشموع في ظلمة الليل فأتت هذه الكلمات الرافضة لكل ظلم المعبرة عن سخط الجميع في عيد يوم جلوس الإمام أحمد بن يحيى :

عيد الجلوس أعر بلادك مسمــعا تسألك أين هناؤها ؟ هل يـــــوجد ؟

تمضي وتأتي والبلاد وأهـــلها في ناظريك كما عهدت وتعــــهد

يا عيد حدث شعبك الظـامي متى يروى ؟ وهل يروى وأين المــورد ؟

حدث ففي فمك الضحوك بـشارة وطنية وعلى جبيـــــــنك موعد

فيم السكوت ونصف شعبك ههنا يشقى .. ونصف في الشعوب مشرد

يا عيد هذا الشعب ذلّ نبوغـــه وطوى نوابغه الســــكون الأسود

ضاعت رجال الفكر فيه كـــأنها حلم يبعثره الدجــــــــى ويبدد [2]

لقد رأى البردّوني الخلاص ماثلا أمام عينيه وهو ينشد للثورة ، ويغني للثائرين على وتره الحزين ، لذلك وجدناه يمجد الثورة ويدعو الشعب للتخلص من ربقة الجلا ّ دين :

هو الشعب طاف بإنـــــذاره على من تحداه واستــــــعبدا

[1] نفس المرجع السابق ص ٢٦٤
[2] نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

وشق لحودا تعب الفســــــــاد وتنجر تبتلع المفســــــــــدا

وأوما بحبات أحــــــــــشائه إلى فجره الخصب أن يـــولدا

أشار بأكباده فالتقــــــــــت حشود مداها وراء المـــــــدى

وزحفا يجنح درب الصــباح ويستنفر الترب والجـــــــلمدا

وينتزع الشعب من ذابــحيه ويعطي الخلود الحمى الأخلدا

ويهتف يا شعب شَدَــيّد على جماجمنا مجدك الأمــــــــجدا

وعش موسما أبديّ الجـــنى وعجسد بإبداعك الـــــــسرمدا

وكحل جفونك بالنيـــــــرات وصغ من سنى فجرك المرودا

لك الحكم أنت المفدى العزيـ ـز علينا ونحن ضحايا الفـــــــدا [١]

ردد البردّوني نداءات وطنه الذي أثقله القيد والسجن ، فكان صوته الصارخ، وفكره الرافض :

لن يستكين ولن يستسلم الوطـــن توثب الروح فيه وانتخى البدن

أما ترى كيف أعلى رأسه ومضى يدوس أصنامه البلها ويمـتهن

وهبّ كالمارد الغضبان متشـــحا بالنار يجتذب العليا ويحتضـــن

فزعزعت معقل الطغيان ضربته حتى هوى وتساوى التاج والكفن

وأذن الفجر من نيران مدفــــعه والمعجزات شفاه والـــــدنا أذن

تيقظت كبرياء المجد في دمــــه واحمر في مقلتيه الحقد والإحـن [٢]

[١] نفس المرجع السابق ٢٦٩ ـ ٢٧٠
[٢] المرجع السابق ٣٦٥

تغنى البردّوني بثورة الشعب ، ولحّن لها أجمل أنغامه ، لأنه كان يراها المنقذ الوحيد لطغيان النظام ، فلا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا على يد الشعب ، غير أن كل هذه الأحلام تبددت حين ارتطمت أحلامه بجدار واقع الثورة ، لم يجد البردّوني ومن خلفه الشعب اليمني أي انفراج لأزمتهم ، بل إنّهم وفي كثير من الأحيان كانوا يتمنون الرجوع إلى ماضيهم لأنهم رأوا في الحاضر شرا يفوق ما عاشوه سابقا :

أتيت خريفا ، كما جئت صيف فلست مقيما ، ولا أنت ضـيفْ

بحسب اعتيادك تمضي تجـيء وتدعى لطيفا ، ولست اللّطـيفْ

فلا أنت غيب ولا موعـــــد ولا أنت حلم ولا أنت طـــيفْ

أتبدوجديدا وأنت القديـــــم بهذا تضيف إلى الزّيف زيّفْ

لماذا تُولي لكي تنثنـــــــي ؟ أحققّت كشفا فتعطي كُشـــيفْ

على حالك اليوم تأتي غـــدا كما جئت من ألف عصر ونيـفْ [1]

لقد أخلف الثوار في نظر الشاعر كل ما وعدوا به من عدل ، وحرية ، ومساواة ، وبدأوا يعملون لمصالحهم الذاتية :

ألم تعلنوا ثورة العدل يوما وطورتموا باسمها كل حـــــيف

سمنتم فيبستمـــو كل نام كما تحتسي خضرة الزّرع (هيف [2]) [3]

لقد عايش البردّوني مولد الثورات ليعيش في نفس الوقت وقت احتضارها ، وهو يبحث عن أمل يتشبث به .

[1] المرجع السابق ج ٢ ص ١١٤٥
[2] هيف : ريح حارة تيبس الزروع والأشجار وتنشف المياة
[3] ديوان عبدالله البردوني ج٢ ص ١١٤٦

يا سبتمر ، قل لاكـــــتوبر كلّ منّا أمســـــى في قبرْ

بين القبرين نحو الشّبرين أترى الحفاّر أطال الــشّبرْ

أسرعتُ أنا ولحــقت على خطّ المجرى طلّقتَ الصبرْ

نفس الشيطان أخذ العنوان وأتى وحشا في جلد الحَبرْ [1]

لقد اختلطت أوراق البردوني ، فلم يعد يثق في كل هذه الثورات التي تنادي بالحرية ، والعدل ، والمساواة ، فهي شعارات تحملها كل تلك الثورات سرعان ما تتبدد على أرض الواقع ، ويستمر الحلم لدى البردّوني في إيجاد واقعه المأمول الذي دائما ما يتكسر أمام الواقع الحاضر فكلّ ميلاد يراه ويظنه أمل المستقبل سريعا ما ينهار أمام عينيه ليبدأ من جديد رحلة الهموم، والمعاناة بميلاد فجره الجديد .

ولدت صنعاء بسبتمبر كي تلقى الموت بنوفمـبر

لكن كي تولد ثانـــية في مايو ... أو في أكتوبر

في أوّل كانون الثاني أوفي الثاني من ديســـمبر

مادامت هجعتها حبلى فولادتها لن تتأخـــــــــر

رغم الغثيان تحن إلى أوجاع الطّلق ولا تضجر [2]

لم يمت حلم البردّوني في ميلاد فجر جديد لصنعاء ، فهو ينتظر بزوغ ذلك الفجر ، ويتأمل أن يرى الحياة تدب في جسدها الميت كما يرى :

هل تدري صنعاء الصّرعى كيف انطفأت ؟ ومتى تنشر

كالمشمش ماتت واقــــــفة لتعدّ الميلاد الأخـــــــضر

---

[1] نفس المرجع ص٩٣٩

[2] نفس المرجع السابق ص ٥٨٠

تندى وتجف لكي تنـــــدى		وترف لكي تصـــــــــفر

وتموت بيوم مشهـــــــور		كي تولد في يـــــوم أشهر

ترمي أوراقاً مـــــــيتة		وتلوّح بالورق الأنضـــر

وتظل تموت لكي تحــــيا		وتموت لكي تحـــيا أكثر[1]

كل ما كان يشغل عقل البردّوني هو أن يرى مدينة غده التي طالما حلم برؤيتها،و ردد أنغام نجواها ، إنها كما يقول : مدينة الغد التى طالما أنتظر بزوغ فجرها الجميل .

من دهور ...وأنت سحر العباره		وانتظار المنى وحلم الإشـــاره

كنت بنت الغيوب دهرا فنمّت		عن تجليك حشرجات الحضـــاره

وتداعى عصر يموت ليحـــيا		أو ليفنى ، ولا يحسّ انتـــحاره

جانحاه في منتهى كلّ نجـــم		وهواه في كلّ سوق : تجـــاره

باع فيه تأله الأرض دعـــواه		وباعت فيه الصلاة الطـــهاره

أوما تلمحينه كيف يعـــــدو		يطحن الريح والشّظايا الـــمثاره [2]

لقد بنى البردّوني صرح أحلامه على أفلاطونيّة وجود تلك المدينة التي ستحقق كل أمانيه وتطلعاته للحياة ، ففيها سيجد تلك الحياة التي حلم بالعيش في ربوعها .

ذات يوم ستشرقين بلا وعـــ		دتعيدين للهشيم النّضــــــاره

تزرعين الحنان في كـــلّ واد		وطريق في كلّ سوق وحـــاره

في مدى كلّ شرفة في تمــنّي		كل جار وفي هوى كلّ جـــاره

في الروابي حـــتى يعي كلّ تلّ		ضجر الكهف واصطـبار المغاره

[1] نفس المرجع السابق ج١ ص ٥٨١
[2] نفس المرجع السابق ج١ ص ٤١٧

سوف تأتين كالنبواءت كالأمــطا ركالصيف كانثيال الغضــــــاره

تملئين الوجود عدلا رخـــــيّا بعد جور مدحّج بالحـــــــقاره

تحشدين الصفاء في كلّ لمــــس وعلى كلّ نظرة وافـــــــتراره [1]

لقد سيطرت على البردّوني الحياة الوطنية ، واجتلبت فكره ، فراح يحاول أن يصوغ فلسفة خاصة به يفسر من خلالها ما يراه من مشاكل سياسية ، ويضع مقترحاته لحلّ تلك المعضلات التي يراها سببا رئيسا في تأخر اليمن عن ركب الحضارة . ومع أن هذه القضايا سيطرت على نتاجه الأدبي بشكل كبير ، إلا أن العالم من حوله كان له نصيب من تأملات البردّوني .

فناقش كثيرا من القضايا على صعيد الوطن العربي ، أو الإسلامي ، أو الدولي ، وكان له من تلك الأحداث مواقفه ، وآراؤه .

لم يكن يحلم البردّوني بالوحدة اليمنية فقط وإنما أرادها وحدة عربية ، تلف جميع أقطار الوطن العربي وقد " تجسدت الوحدة العربية في القصيدة التي قالها عام ١٩٥٨ بعنوان البعث العربي وفيها يقف على الحافة بين المنطقتين الرئيسيين للنظر إلى الوحدة العربية بوصفها همّا كبيرا إذا ما حصلت ـ فهو يقف برجل في الماضي المبهم، وأخرى في الحاضر المتفتح" [2] ، وهو لا يقصد من العنوان السابق ما تحمله الكلمة من معنى سياسي موجود اليوم ، وهو اسم للحزب الاشتراكي ، وإنما أراد المدلول اللغوي للكلمة ، فهو يريد العودة إلى المجد العربي ، فالبعث مرادف للرجوع مرّة أخرى إلى زمن العزّة و الفخار الذي كانت تعيشه الأمة في السابق فهذا ما

[1] نفس المرجع السابق ج١ ص ٤١٨ـ ٤١٥

[2] شعر عبدالله البردوني ص ٧١

تحمله دلالات القصيدة . فهي قيلت في مدح الاجتماع الذي ضمّ " أقطاب العرب الثلاثة جلالة (الإمام أحمد) ، والرئيس (جمال عبد الناصر) ، وجلالة الملك (سعود) " [1] ، وقد تغنى البردّوني بهذا الاجتماع، ورأى فيه وحدة للأمة تعود فيه لسالف مجدها ، وعزتها .

وحدة المجدوالفخـــــــار التّليد	زعزعت مرقد الصباح الجــديد
واستطارت تحت قافلة الفتـــــ	ح وتطوي الحدود بعد الحــــدود
وتناجي العدا بألسنـــــــــة النّا	ر وبالموت من شفاه الـــحديد
وحدة يعربيّة وانـــــــــطلاق	عربّي يهزّ صمــــــت اللّحود
إنما العرب ثورة وحّدتـــــــــها	يقظة البعث وانتفاض الوجـــود
فابن (يحيى) مؤزر (بجمال)	(وجمال) مؤزر (بسعـــــود)
وحّدت شملهم كبار الأمــــــاني	والدم الحرّ واعتزاز الـــجدود
قد تلاقى الحجاز واليـــمن الميـ	مون والنّيل في اتحاد الجهـــود
واستفاقت مواطن العـــرب الشّم	م فعودي يا راية العرب عودي [2]

لقد غنى البردّوني للعروبة أجمل الألحان ، وراح يتنزه في بساتين رياضه ، وهو يحلم بأن يجتمع الشمل في يوم من الأيام .

دعني أغرد فالعروبة روضـتي	ورحاب موطنها الكبير رحـــابي
فدمشق بستاني ومصر جداولي	وشعاب مكة مسرحي وشـــعابي
وسماء لبنان سماي ومـــوردي	بردى ودجلة والفرات شــــرابي

[1] ديوان البردوني ج١ ص ١١٦
[2] نفس المرجع السابق ج١ ص ١١٦ – ١١٧

وديار عمّان دياري ... أهــلها أهلي وأصحاب العراق صحابي [1]

لقد عاش البردّوني مع أمته ، يؤلمه ما يؤلمها ، ويفرحه ما يفرحها ، فهي تعيش بين جوانحه ، يحس بكلّ ما يحصل فيها .

وطن العروبة موطـــــــني أعياده عيدي وشكوى إخوتي أوصابي

فاترك جناحي حيث يهوى يحتضن جوّ العروبة جيئــــتي وذهابي [2]

لم يتوقف همّ البردّوني على المواضيع العامة في موقفه من الأمة ، وإنما وجدناه يعيش مواضيع الأمة الخاصة ، فقضية فلسطين كان لها حضور في أدب البردّوني ، فهو كأيّ شاعر عربي عاش تلك المأساة بكلّ تفاصيلها ، وحلم كالآخرين بتحرر ذلك الجزء العزيز من براثن الصهيونية .

يا أخي يا بن الفدى فيم التمـادي وفلسطين تنادي وتـــــــــــنادي ؟

ضجّت المعركة الحمرا ... فقم نلتهب .. فالنور من نار الجـــهاد

ودعا داعي الفدى فلنحـــترق في الوغى أو يحترق فيها الأعادي

يا أخي يا بن فلســـطين التي لم تزل تدعوك من خلف الحـــداد

عد إليها لا تقل لم يقـــترب يوم عودي قل أنا يوم المـــــعاد [3]

لقد رأى البردّوني أن هذا الوعد المشئوم الذي حمل جريرته بلفور ، لن يزول إلا إذا اجتمعت الأمة ، وأتت عدوها صفا واحدا .

خاب بلفور وخـــــــابت يده خيبة التجّار في سوق الكـــساد

---

[1] نفس المرجع السابق ج١ ص ٢٥٤
[2] نفس المرجع السابق ج١ ص ٢٥٥
[3] نفس المرجع السابق ج١ ص ٣٢٠

لم يضدِع لا لم يضدِع شـعب أنا قلبه وهو فؤاد في فـــؤادي

قل لبلفور تلاقت في الفـــدى أمة العرب وهبت للتّـــفادي

وحّد الدرب خطانا والـــتقت أمتي في وحدة أو في اتـــحاد

عندما قلنا : اتحدنا في الهوى قالت الدنيا لنا : هاكم قـــيادي

ومضينا أمّة تُزجي الهـــدى أينما سارت وتهدي كلّ هادي [1]

ثم نجده يندد باختطاف الشيخ عبد الكريم عبيد من جنوب لبنان بيد الكومندز الاسرائيلي المحمول جوا ليلة ٢٨ تموز ١٩٨٩ م [2]

بالخطف أضحت دولة قل متى تدوّل السرحان با بن العـــديم

من ذا سيثنيها ؟ حماة الحـــمى أدنى زنابير الزمان الســـّئيم

يا بن عبيد ما الذي ترتـــئي فوق احتمال الأرض نصر اللئيم

كيف استباحوا بيتك ابن الهدى وأهدروا فيه جلال الحـــطيم [3]

لقد عايش البردّوني كل هذه الأحداث ، وتفاعل معها بكلّ ما يستطيع من إحساس ، ممّا ترك أثراً واضحا في مشاعر البردّوني إزاء هذه المعايشة الحزينة لأوضاع بلاده خصوصا ، وحال أمته عموما ، وهو يرى وضعها الذي يمزق القلب حزنا ، ويفطر الكبد غيظا ، لذلك وجدناه يتجه إلى سياط السخرية ليجلد بها ذاته ، وأبناء أمته عله يجد مخرجا لما يراه من نكبات ، وما يحسّ به من آلام . فبعض الألم قد ينعش الأمل ، وصدمة كهرباء قد ترجع الحياة لقلب يتجرع الموت .

[1] نفس المرجع السابق ج١ ص ٣٢٢
[2] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٥١٧
[3] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٥٢٢

٢ـ أثر الحياة الاجتماعية :

لعبت حياة البردّوني الاجتماعية ، دوراً كبيراً في رسم تلك الشخصية الساخرة ، فما عاشه البردّوني ، وما مر به من تجارب اجتماعية نقش على وجهه أثرا أكبر مما فعله الجدري بذلك الوجه البائس ،" فالبيئة عامل أساس في تشكيل توجهات الفرد ذلك لتلازم الحدث الزمني بالتجاوب المكاني والفعل الإنساني "[1]، "والموقف الفكري لأي إنسان لابد أن ينطلق من ذات الإنسان ، والبردّوني لا تنفصل ذاته عن مواقفه ، وكما رأينا في البداية كيف عاش البردّوني حياته فقيرا ومحروما من الرفاهية ، وسبل العيش الكريمة ، فهل تنفصل هذه الحياة عن مواقفه ، أم أنها تشكل سببا مهما في تفكيره ورؤيته ؟ "[2] إذن أثرت حياة البردّوني الاجتماعية التي عاشها على رسم تلك الشخصية المتمردة ، التي تحاول بكل طاقاتها أن تتخلص من تلك الحياة التي كانت تسيطر عليه ، فهناك من يموت جوعا ، وهناك من يتجاوز حد البذخ . الذي يعبّر عنه البردّوني في إجابته الساخرة .

فترى البؤس آكلا وأكيـلا وترى العقم ساجنا وسجينا

أي فرق ما بين ذاك وهذا ؟ ذا هزيل وذاك يبدو سمـينا [3]

عبّر البردّوني باسم الإشارة (ذا) للدّلالة على قرب ذلك الهزيل ، لأنه يقصد به أفراد شعبه فهو قريب من تجربة البردّوني ، أما المقابل فهو بعيد عن تلك التجربة البردّونية

[1] الثقافة والثورة في اليمن ، عبدالله البردّوني، دار الفكر بدمشق ، ١٩٩٨م ، ط ٤ ، ص ١٥
[2] شعر البردوني –محمد القضاة –ص ٤٩
[3] ديوان البردوني _ ص ٨٤٥

فكان يستحق اسم الإشارة (ذاك) ذلك البعيد الذي كان يحسه البردّوني في حياته ، ويتلمسه في نسماته ، فأخذ يقص علينا رحلته مع الفقر .

خذها فديتك يا شقيقي ذكرى أرق من الرحـــــيق
وألذ من نجوى الهوى بين العشيقة والعشـــــيق
خذها أرق من السـنى في خضرة الروض الوريق
واذكر تهادينا عـلى كوخ الطفولة والطـــريق
وأنا وأنت كموثقـين نحنّ في القيد الوثيـــــق
نمشي كحـيرة زورق في غضبة اللج العمـــيق
ونساجل الغربان في الـ وديان أصوات النــــعيق
وإذا ذكرت لي الطـعام أكلت أنفاســـــي وريقي [1]

لقد أصبح الطعام مجرد ذكرى قد تجلبها مسامرات الصداقة ، وعند تلك الذكرى لا يجد البردّوني إلا أنفاسه لتسد رمق جوعه لينتقل بعد ذلك في سرد المعاناة كاملة .

أيام كنا نسرق الرمـــ مان في الوادي السـحيق
ونعود من خلف الطريـ ق وليلنا أحنى رفـــــيق
ونخاف وسوسة الريـا ح وخطرة الطيف الرشـيق
حتى نوافي بيـــتنا ... والأهل في أشقى مضيق [2]

[1] ديوان البردوني – ج٢- ص ٢٣١
[2] نفس المرجع السابق ص ٢٣٢

هذه الطفولة التي كان يعيشها البردّوني تنتقل بين الطرقات بحثا عن حبّة رمانة يجد فيها إشباعا لجوعه ، حتى ولوكانت عن طريق السرقة ، ليأوي إلى بيت يعيش أهله في شقاء وضيق ، لينتقل إلى تصوير أحداث ذلك البيت .

فيصـــيح عمي والشرا		سة في محياه الصـــفيق[1]

وهنـــــــاك جدتنا تنا		غـــينا مناغاة الشفيـــق

تهوى الحياة وعمرهـا		أوهى من الخيط الدقـــيق

وأبي وأمي حولنـــــا		بين التنهد والشـــــهيـق

يتشاكيان من الطـوى		شكوى الغريق إلى الغريق

شكواهما صمت كمـا		يشكو الذبال من الـــحريق

ويحدّقان إلى الســكو		ن ورعشة الكوخ العـــتيق[2]

هذه الحياة التي كان يعيشها البردّوني مع الفقر آهات ، وجوع ، ومعاناة لا يستطيع معها تسيير حياته ، مع الرغبة الشديدة في الحياة . وهذا ما وجدنا عندما تحدث عن جدته فقد وصف حبها للعيش ، مع كبر سنها دلالة على قبوله للتحدي ومواجهة المصاعب على الرغم من كل الظروف.ثم يأتي بتلك المفارقة التي تبين حالة المقابل ، وما يعيشه من ترف .

وجوارنا قوم لهـــــم		إشراقة العيش الطـــليق

من كل غرّ لم يمـــز		بين الأغاني والنهــــيق

وتظنه رجلا وخـــــلـ		ـف ثيابه وحش حقيـــقي

[1] أخطاء في الأصل تم تعديلها . (تدوير البيت الأول والثاني و الأخير) ليس في الأصل .
[2] نفس المرجع السابق – ص ٢٣٢

وتراه يزعم شـــــخصه من جوهر المسك الفتيـق

يتحدثون عن النـــــقود حديث تجار الرقـــــيـق

حتى تراهم صـــــــورة للزور والجـــهل الأنيـق

ونماذجا براقـــــــــــة لأناقة الخزي العـــريـق

يمشون في نسج الحـريـ ـر فهم رجال من حــرير

وكأنهم من خلق نســـــا ج وخـــــــــــــياط قدير

لولا خداع ثيــــــــابهم كسدوا بأسواق الحــمير

فقراء من خلق الرجــال ويسخرون من الفــــقير [١]

لقد زرع البردّوني في هذا النص ذلك الإحساس الشديد بالمرارة ، فهو عندما ينظر إلى هؤلاء المترفين لا يرى فيهم علامات التميز والنباهة التي قد يفترض أنها قادتهم إلى ما هم فيه ،بل على العكس من ذلك تماما فهم صورة ممثلة للزور والخداع ، ولو أردت مقارنتهم فهم لا يصلون إلى منزلة الحمير ، ومع ذلك فهم يتمتعون بكل هذا النعيم . ويبدع البردّوني في اختيار كلماته فينكر كلمة (قوم) لتدل على أنهم غير معروفين لديه ، كما أن تعدد صور الخداع جعل البردّوني يميل إلى التنكير أيضا في قوله (صورة) لتشمل كل أنوع الصور الخادعة .

ويختم بتلك الزفرة الموجعة عندما شاهدهم يسخرون من فقر الفقراء ، ويتمتعون على حساب فقرهم ، ويرى البردّوني أن الحياة غير عادلة ، فلو أنصفت كان هؤلاء المترفون هم أحق بالسخرية ، لأنهم لو رجعوا لأنفسهم لوجدوا عجبا .

[١] نفس المرجع السابق – ص ٢٣٢

يمضي البردّوني ليقف مع حالة مأساة الفقير،ومعاناته في رحلته مع الحياة ، وهو يلبس الفقر كجلده :

في هجعة الليل المخيف الشـاتي والجو يحلم بالصـــباح الآتي

والريح كالمحموم تهذي والدجى في الأفق أشباح من الإنصاتِ

والشهب أحلام معلقة عـــلى أهداب تمثال من الظلــماتِ

والطيف يخبط في السكينة مثلما تتخبط الأوهام في الشـبهاتِ

والظلمة الخرسا تلعثـم بالرؤى كتلعثم المخنوق بالكلـــماتِ[1]

فحاله دائما في ترقب وخوف ، يخشى الآتي ، ويرعبه الماضي

في ذلك الليل المخيف مضى فتى قلق الثيـلب مروّ ع الخطواتِ

يمشي وينظر خلفه وأمــــامه نظر الجبان إلى المغير العاتي

ويرى الــحتوف إذا تلفت أو رنا ويحس اصداءً بلا أصــواتِ[2]

هذه هي الصورة الحقيقية التي يعيشها أبناء الطبقة المعدمة ، صورة الفقر والأحلام المعلقة والأشباح والظلمات [3]، صورة ارتبطت بالواقع الاجتماعي الذي عاشه البردّوني فلا يستطيع التخلص من رتابتهالذلك لم تنته صرخات البردّوني الجائعة ، بل تتواصل في وصف ذلك الكوخ الذي يسكنه الفقر في رحلته مع ذلك الفقير في معاناته اليومية ، وهو يصف كدحه وألمه :

وعلى يمين الدرب كوخ تلتقي في صدره النكبات بالنكبات

---

[1] نفس المرجع السابق – ص ٢٩٨
[2] نفس المرجع السابق – ص ٢٩٨
[3] شعر البردوني – – ص ٥٥

بين القصور وبينه ميل ومـا أدنى المكان وأبعد الحاجات[1]

لم تنفعه نداءات الاستغاثة لأنه من عالم آخر ، فحتى ولو كان بجوارهم فهم لا يرونه لأنه مخلوق يختلف عن طبيعتهم .

يشكو إلى جيرانه فيـــــــصمهم عنه ضجيج القصف والـلذات

كوخ إذا خطرت به ريح الـدجى أوما إلى السكان بالرعـشات

(سنوات يوسف) عمره وجداره أبدا تنوء بأعجف الســـنوات

فيه العجوز وبنتها وغـــــلامها يتذاكرون موارد الأقـــوات

فالحقل جدب ظامئ وسمـــــاؤه صحو تلوح كـصفحة المرآة

والأغنياء ، وهل ترق قلوبــهم ؟ لا ، إنها أقسى من الصخرات [2]

كل ما في هذا الكوخ ينذر بالموت ، وتعلو صرخات النجدة منه ، بل إنّ أزمته قد تكون أشد ألما من سني يوسف عليه السلام ، لأنّه في ذلك الزمن وجد من يأخذ بيد الفقير ، أما في زمن البردّوني ، فالأغنياء قاسية قلوبهم فهي أقسى من الحجارة . كل هذه الظروف المعيشية كان وراءها ذلك الجشع الذي سيطر على المجتمع .، حتى إنّه ليظن أن البلاد تم تقسيمها على فئة معينة من الناس ، فهم الذين ينعمون بخيراتها ، وهم الذين يحق لهم أن يستفيدوا من ثرواتها،أما الآخرون فمحرم عليهم كل شيء . [3]

يرحل البردّوني في تجربة أخرى مع بيوت خلت من كل شيء فنامت على بساط الجوع والحرمان يتحدث البردّوني عن ليالي هؤلاء الجائعين .

---

[1] ديوان البردوني – ص ٣٠١

[2] نفس المرجع ص ٣٠١

[3] اليمن الجمهوري – ص ٤٣٧-٤٣٨ بتصرف

هذي البيوت الجاثمـــات إزائي ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ ليل من الحرمـــان والإدجـاء

من للبيوت الهادمـــات كأنها ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ فوق الحياة مقابر الأحــــياء

تغفو على حلم الرغيف ولم تجد ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ إلا خيالا منه في الإغــــفاء

وتضم أشـــباح الجياع كأنها ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ سجن يضم جوانح الــــسجناء

وتغيب في الصمت الكئيب كأنها ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ كهف وراء الكون والأضـــواء

خلف الطبيعة والحــياة كأنها ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ شئ وراء طبائع الأشيـــاء

ترنو إلى الأمل المولّي مــثلما ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ يرنو الغريق إلى المغيث النـائي

وتلملم الأحلام من صر الدجى ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ سودا كأشباح الدجى الســـوداء [1]

معاناة يتسبب في تكريسها النظام الطبقي الذي يئن الفقير والمعدم تحت وطأته .

يا ليل من جيران كوخي ؟ من هم ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ مرعى الشّقا وفريـسة الأرزاء

الجائعون الصابرون على الطوى ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ صبر الرُّبا للريح والأنـــواء

الآكلون قلوبهم حقــــدا على ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ ترف القصور وثروة البـخلاء

الصامتون وفي معـاني صـمتهم ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ دنيا من الضجات والضوضاء

وَيْلي على جيران كـــوخي إنهم ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ ألعوبة الإفلاس والإعـــياء

ويلي لهم من بؤس مـــحياهم ويا ‌‌‌‌‌‌‌‌‌ ويلي من الإشفاق بالبؤســاء [2]

لم يقتصر تذمر البردّوني من حياة الحرمان والفقر ، وإنما نجده يمتد ليشمل كل إفرازات هذه الظروف الاجتماعية الصعبة ، فالجهل الذي يسيطر على العقول ثمرة

[1] ديوان البردوني ج١ـ ص ٨٩
[2] المرجع السابق ص ٨٩

من ثمرات هذه الأوضاع ، ونتيجة منطقية لحياة يسعى الإنسان فيها لسد حاجته الأساسية :

مررت بشيخ أصفر العـــقل واليد يدب على ظهر الطـريق ويجتدي

ثقيل الخطا يمشي الهوينى بـجـوعه وأحزانه مشي الضـــــرير المقيد

ويمضي ولا يـــدري إلى أين ينتهي ولم يدر قبل السير من أين يبتدي

ويزجي إلى الأسماع صوتا مجرّحا كئيبا كأحلام الغريـب الـــمشرد

يمد اليد الصـفرا إلى كـــــل عابر ولم يجن إلا اليـأس من مـــدّة اليد

فيلقي على الكف النحــــيل جبينه ويسأل هل في الأرض ظل لمسعد [١]

لقد وجد البردوني ذلك الشيخ صفرا من شيئين ، من العقل ، ويقصد به الجهل ، وصفرا من المال ، لكننا وجدناه بعد ذلك لا يبحث إلا عن ما يملأ يده وليس عقله ، لأنه في حاجة ضرورية للعيش ، ولا مجال للتفكير بحياة عقلية ، ويستمر البردّوني في جلد ثمرات هذه الحياة ليقف مع ظاهرة السرقة، وكيف أن بعض الناس أصبح يمتهن هذه الجريمة سدا لحاجته

فقصيدته (لص في بيت شاعر) هي نقد لاذع لهذا المجتمع كما أنها تصوير نابض بالحياة لما يعيشه الفقير من حياة بائسة ، تجبر صاحب الشرف ، والمنزلة على امتهان أمر لا يليق بأمثاله ، كما وجدناه في قصة ذلك اللص الذي سولت له نفسه أن يسرق منزل شاعر ، لكن حتى من حاول أن يسد حاجته بطرق غير شرعية نجده يرتطم بصخرة الواقع التي تثبت حجم المأساة التي يعيشها الجميع،ودون استثناءات .

[١] المرجع السابق ص ٩٦

ماذا وجدت سوى الفـراغ وهرة تـشـــــــتمّ فاره

ولهاث صــعلوك الحرو ف يصوغ من دمه الـعباره [1]

يطفي التـــــوقد باللظى ينسى المرارة بالمـــــراره

لم يبق في كـــوب الأسى شيئا حساه إلى الـــــقراره [2]

مرارة يعيشها البردّوني وهو يرى أن الظروف تجبر أبناء شعبه على أن يمارسوا عادات تتنافى مع مبادئهم ، فنجده يعطي تلك النصيحة السيئة كما أسماها لمن تريد أن تصل إلى أهدافها من بنات شعبه .

إن تريدي ســيارة وإداره فلتــــكوني قوادة عن جداره

ولتعدي لكل سلــطان مال كل يوم زوجة مســـــتعاره

ولتكوني عمــيلة ذات مكر تشربين الــقلوب حتى القراره

ولتلبي ســـرير كل وزير ولتمني من في انتظار الوزاره

وبهذا النشاط تمسين أعلى من وزير ، وربما مـــستشاره[3]

لم يقف البردّوني أمام كل هذه المآسي مكتوف اليد ، وإنما أعلن بلغة مدويّة، أن هذه الأوضاع لن تستمر ، وأن غدا مشرقاً لا بد وأن يأتي ، فعندما تتأزم الأمور يأتي الفرج ، لذلك وجدنا البردّوني يصرخ بأعلى صوته مناديا غده الزاهر "فالحكم ينبثق من دخائل الفن ، وبالأخص الفن الصراعي الذي يريد أن يتفجر بغضبه كما تتفجر الزلازل والرعود ، ولا يمنعه هذا التفجر المباشر من التألق الإبداعي الذي يمكن

[1] تدوير البيت ليس في الأصل
[2] المرجع السابق ص ٤٩٨
[3] المرجع السابق ص ٦٣٠

إدراكه بالحس ، والذي يلامسه من أول هجساته ، من أمثال ذلك أشعار الصعاليك الذين أحسوا مرارة فقرهم وتأجج غضبهم على المترفين ، حتى ارتكبوا الحتوف إلى قوت الليلة أو اليوم وجاهروا بهذا كصراع طبقيّ بدائي وكشجاعة تقبلها البيئة " [1]، لقد كانت صرخات البردّوني غاضبة ، مدويّة ، تحاول أن تنهض بالهمم ، غير مكترثة بكل المصاعب صرخات بثّ ها البردّوني في وجه كل من يسلب الفقير حقّ ه في الحياة :

لماذا لي الجوع والقصف لك ؟	يناشدني الجوع أن أســـــــألك
وأغرس حقلي فتـــــجنيه أنــ	ـت وتُسكر من عرقي منـــجلك
لماذا؟ وفي قبضــتيك الكنو	ز تمد إلى لقمتي أنمـــــــــلك
وتقتات جوعي وتدعي النزيـ	ـه وهل أصبح اللص يوما مـلك ؟
لماذا تســـود على شقـوتي ؟	أجب عن سؤالي وإن أخــــجلك
ولو لم تجب فســكوت الجـوا	ب ضجـــــــيج يردد : ما أنذلك
لماذا تدوس حشــاي الجـريـ	ـح وفيه الحــــــنان الذي دللـك
ودمعي ودمعي سقاك الرحيـ	ـق أتذكـــــــر يا نذل كم أثملـك
فما كان أجهلني بالمـــــصيـ	ـر وأنت لك الويل ما أجــــهلك [3][2]

تمرد صارخ في وجه كل طاغية سلب الإنسان الشريف حقه في حياة كريمة، وتمتع هو بكل ثروات البلاد ، متناسيا أن كل ما وصل إليه هو من كدح هؤلاء المساكين ،

---

[1] فنون الأدب الشعبي في اليمن ، عبد الله البردّوني ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ص ٢١٢.
[2] تدوير الأبيات ليس في الأصل
[3] ديوان البردوني ج١ – ص ٢١٦

الذين يتطاول عليهم ، ويضيق عليهم فسحة العيش ، لكن غد البردّوني يشرق في إبداعه ، فهو يرى تباشير الصباح قادمة ، وسحب الليل زائلة .

غدا سوف تعرفـــــني من أنا ويسلبك النبل من نبـّلــــــــــك

ففي أضلعي ، في دمي غضبة إذا عصفت أطفأت مشـــــعلك

غدا سوف تلـــعنك الذكريا ت ويلعن ما ضيك مـســــتقبلك

ويرتد آخرك المســـــــتكيـ ـن بآثامــه يزدري أولــــــــك

ويستفسر الإثم أين الأثـــيـ ـم ؟ وكيف انتهى ؟ أي درب سلك ؟

غدا لا تقل تبت لا تعـــتـذر تحسر وكفن هنـــا مأمــــــــلك

ولا (لا تــقل) أين مني غد؟ فلا لم تسمّر يداك الفـــــــلك

غدا لنْ أَصدّق لركب الظــلا م سأهتف : يا فجر ما أجمـــلك [1][2]

" وهكذا ، كانت أوضاع المجتمع تعج بالمتناقضات ، طبقات تستغل أخرى، وثانية تسلب الخيرات ، وثالثة تعمل في الرّبا ، وأخرى تحتكر التجارة ، وتستغل الفلاحين ، ولكن كيف عبر الشعر عن هذه الأوضاع ؟

لقد عالج الشعر اليمني هذه التناقضات من زوايا مختلفة ، فأبصر الظلم الواقع على الطبقات المسحوقة ، وشجب الإقطاع والإقطاعيين ،وعلى رأسهم المسئولون الذين يتاجرون بعرق الفقراء ، وبشر بعدالة اجتماعية قادمة .[3]قادمة لأن الإنسان الأبيّ لا يموت ، يتعذب لكنه يخرج من تحت رماد المصائب أكثر جلادة وقوة .

[1] تدوير الأبيات ليس في الأصل .
[2] نفس المرجع السابق – ص ٢١٧
[3] شعر عبدالله البردوني _ ص ٥٤ بتصرف

شوطنا فوق احتمال الاحتـــــمال فوق .. الصبر ... لكن لا انخذال [1]

نغتلي .. نبكي ... على من سقطوا إنما نمضي لإتمام المجـــــــال

دمنا يهمي عـــــــــلى أوتارنا ونغني للأماني بانفعـــــــــال

مرّة أحـــــــــزاننا ... لكنــّها يا عذاب الصبر أحزان الرجـــال

نبلع الأحـــــجار ... ندمـــى إنما نعزف الأشواق ... نشدو للجـمال

ندفن الأحـــــباب ... نأســى إنما نتحدى ... نحتذى وجه المـحـال

مذ بدأنا الشوط .. جوهرنا الحصى بالدم الغالي وفردسنا الرمـــــال

نبتني لليمن المنشـــــــود من سهدنا جسرا وندعـوه : تعـــــال[2]

معاناة يعيشها كل المكافحين للوصول إلى أهدافهم المرسومة ، يتجّرعون في سبيلها أنواع الهموم ، يستسيغون شربها لأنها بطعم الحياة يبنون جسر أمل لتعبر عليه الأجيال . لذلك كانت التضحية جميلة ، والفداء مطلباً ، لتحياالأمة،

موت بعض الشعب يُحيي كله إن بعض النقص روح الاكتمال

ههنا بعض النجوم انطـفأت كي تزيد الأنجم الأخرى اشتعال

تفقد الأشجار من أغصــانها ثم تزداد اخضرارا واخـضلال [3]

لقد " حمل البردّوني ابن الطبقة المعدمة هموم طبقته المحرومة التي تمثل الغالبية العظمى من أبناء الشعب،فإذا به يرسم لنا صورة لحياة الفاقة التي يعيشها أبناء طبقته ، منطلقا من المعاناة التي حملها مع هذه الطبقة ، ومن تجربة ذاتية متجذرة ، وأصبحت

---

[1] البيت مكسور وقد ورد هكذا في الأصل .
[2] ديوان البردوني ج١ ص ٦٦٧
[3] نفس المرجع السابق –ص ٦٦٨

رسالته محاربة هذه الأوضاع السائدة في مجتمعه الذي يعاني التخلف والظلم السياسي والاجتماعي ، وجاء شعره من المجتمع وإليه ، هذا المجتمع الذي يفتقر لأبسط أنواع العدالة الاجتماعية ، ويتفشى بين أبنائه ركام الجهل وحب الذات ، وهؤلاء الجياع الذين يحلمون بلقمة العيش ، وينتظرون الفرج ، وغيرهم يعيش في ترف ورخاء "[١].

كان لهذه الأوضاع المعيشية ، والمعاناة الحياتية ، دور في بروز تلك الشخصية الثائرة لدى البردّوني ، وقد استطاع الشاعر أن يلجم جماح ثورته بأسلوبه الساخر ، ينتقد الأوضاع بصورة يفهمها ذلك المزارع البسيط ، يستنهض الهمم ، لكن بأسلوب رمزي يبعده عن المساءلة ، والمشاكل التي قد تتسبب فيها المباشرة ، ومع ذلك فإن حصلت فهو مستعد للتضحية من أجل حياة أمة .

في النهاية هذه الرحلة الحياتية مع البردّوني يتجه البحث إلى أن الظروف الاجتماعية، قد كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى إفراز ذلك الأسلوب الساخر في أدب البردّوني.

[١] شعر عبدالله البردوني – أحمد القضاة – ص ٥٥

الفصل الثاني :

أساليب البردّوني الساخرة .

لقد أشار البحث سابقا إلىأن لكل أديب طريقةً يسلكها للتعبير عن أفكاره وآرائه، وهي ما يسمى بالأسلوب ، فلكل أديب أسلوبه في معالجته لأفكاره التي يريد طرحها ، وهو يختلف من شخص لآخر وإذا قادنا البحث في السابق لمعرفة أن السخرية غرض أدبي يعادل المدح أو الرثاء أو غيرهما من الأغراض الشعرية الأخرى ، عليه فإن الأديب قد يستخدم هذا الأسلوب أداة فاعلة للوصول إلى أغراضه المرادة ، شأنه شان أي أسلوب يطرقه الكاتب في تناوله لموضوعاته . والبحث في هذا الموضع يحاول استقصاء أهم أساليب البردّوني التي عبّر فيها عن سخريته ، محاولا التحرك في إطار هذه الأساليب مبينا كيفية استخدام البردّوني لها ، والنماذج التي تعطي الإثبات على هذا الاستخدام . فالبحث حاول التركيز على الجانب الأكثر دورانا في أسلوب البردّوني ،والوسيلة التي يرى البحث أنها أهم من غيرها في بيان طرق معالجة البردّونيلهذا الغرض الأدبي ،والتي ركزّ البردّوني من خلالها على معالجته لقضاياه الأدبية والفكريّة ، وقد وقف البحث مع هذه الأساليب ليبين كيف استطاع البردّوني أن يُخضع هذا الأسلوب لأهدافه الساخرة ؟ وطُرُق تناول هذه الأساليب،وما هوجانب التّميّز الذي جعل البردّوني يختلف عن غيره في هذا الطّرح،بلجعله يدلُّ على شخصيّة متميّزة عن غيرها في تناوله لهذه المواضيع . لقد رسم البردّوني في مسيرته الشعرية خطّا أسلوبيّا خاصّا به ، استطاع من خلاله أن

يعبّر عن كل ما يريد بطريقة خاصّة ، والبحث يحاول أن يكشف عن بعض أسرار هذه الخصوصيّة .

١ ـ الاستفهام :

لقد عرّف ابن منظور الاستفهام لغة بقوله :الفَهْمُ : معرفتك الشيء بالقلب، فَهِمَه فَهْما ، وفَهَما ، وفَهَامة :عَلِمَه ...

وفَهِمْت الشيء عَقَلْتُه ، وفَهَّمْت فلانا ، وأَفْهَمْته ،وتَفَهَّم الكلام فَهِمه شيئا بعد شيء ، ورجل فَهِمٌ سريع الفَهْم ، ويُقال فَهْمٌ وفَهَمٌ ، وأَفْهَمه الأمر ، وفَهَّمه إياه جعله يَفْهَمُه ، واسْتَفْهَمه سأله أَن يُفَهِّمَه ، وقد اسْتَفْهَمَني الشيء فأَفْهَمْتُه وفَهَّمْته تَفْهِيما [1] والاستفهام هو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار [2]،والاستخبار ـ طلب خبر ما ليس عند المستخبر وهو الاستفهام ، وقيل إن بين الاستخبار والاستفهام فرقا ضئيلا ، ذلك أنك تستخبر فإن أجبت ولم تفهم وسألت ثانية فأنت مستفهم . [3]والتعريف المشتهر للاستفهام عند المتأخرين : "أنه طلب حصول صورة الشيء في الذهن ، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين،أو لاوقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصوّر . " . [4]

هذا تعريف الاستفهام بشكله العام، لكن العرب لم يقصروا أدوات الاستفهام على هذا المعنى وحسب ، وإنما أخرجوا الاستفهام عن معناه العام ليدل على معانٍ أخرى من خلال سياق الكلام . لأن "ما تُشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدق من أن نحدده تحديدا تاما وأن المعاني التي يشير إليها هى بطبيعتها خفية وهاربة لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة ، وهذا ليس بعيدا عن طبيعة اللغة إذ إنّها مهما تروّى المتكلم في

---

[1] لسان العرب فهم .
[2] الإتقان في علوم القرآن .جلال الدين السيوطي ، تقديم مصطفى البغاة ، دمشق ، دار ابن كثير ، ١٤٠٧ هـ ٢ / ٨٨٣
[3] الصاحبي ٢٩٢
[4] التعريفات ٣٧

كلماتها وتراكيبها وراجع الاختيارت ، وصقل العبارة ، فلن تكون هذه العبارة مبينة إبانة كاملة عمّا أراد أن يبيّن عنه بها ، خاصة في المواقف الحيّة التي هى بين أعيننا ونحن نتكلم هذا الكلام " [١] . "فالاستفهام البلاغي لا يقف عند حدّ الطلب ، بل يتجاوز ذلك إلى التعبير عمّا في النفس من معانٍ . وهذه المعاني لا يكشف عنها ويدل عليها نوع أداة الاستفهام فحسب ولا نوع ألفاظ الجملة وطريقة تركيبها فقط ، ولا رؤية المستفهم وحدها،بل كل ذلك وغيره يشارك في الكشف عن دلالة هذه الجملة.[٢]فالاستفهام لا يقتصر على طلب الفهم عن أمر غير معروف من خلال سياق جملة محددة ، بل الأمر يتعدى ذلك إلى محاولة تسخير إمكانيات اللغة بما فيها الاستفهام للتعبير عمّا يختلج في صدر الإنسان من تعابير ، حتى ولو أن هذه التعبيرات لا يمكن أن تفي بكل ما يدور في صدر المتحدث من خواطر " فالقول بأن المعاني أكبر من الكلمات وأن الكثير من المشاعر والأفكار يحتبس في صدور الناس . ولا تحملها كلماتهم وأشعارهم ، مما لا يرتاب فيه من يعرف طبيعة اللغة ولو كانت اللغة قادرة على أن تستوعب كل اختلاجة وكل سانحة لما لجأ الإنسان إلى غيرها في التّعبير عن حسّه وشعوره . "[٣]فإذا كان الإنسان عاجزا عن الإبانة عن كل ما يدور في خَلَده كان لِزَاما أن يجد أساليبأُخرى معينة له في محاولاته الدّؤوبة للتعبير عن خلجات نفسه ، وما يريد أن يوصله للغير ، لذلك وجدنا الكثير من أساليب اللغة تخرج بمقتضى سياقاتها عن دلالتها التي وضعت لها ، ومنها الاستفهام " فالمعاني

---

[١] دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، محمد أبو موسى القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط٢ ص ٢١٨
[٢] أساليب السخرية في البلاغة العربية، شعيب أحمد الغالي ، إشراف دم عبد الحليم المطعني ، ١٤١٤ هـ ص ٧١
[٣] دلالات التراكيب ص ٢١٨

التي تفيدها أدوات الاستفهام كثيرة لا يمكن الإحاطة بها وإنما يذكر العلماء منها ما يرشد إلى طريقة تفهمها والوعي بها." [١] لأن سياق الجملة هو الذي يحدد غرض المتحدث ، والسياق هو المتحكم في توجيه المعنى المراد ، " والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقتها تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام " [٢]

ومن هذه المعاني التي يخرج إليها الاستفهام السخرية ، بكل معانيها من تهكم، وتحقير، واستهانة، وغيرها من المعاني التي تندرج تحت معنى السخرية ، وهذا الأسلوب إذا سلكه الإنسان في التعبير عن مراده يزيد أسلوبه تأثيرا وقوة أكثر من التعبير المباشر عن هذه الأمور لأن فيه استفزازا للمشاعر ، ولعبا بالأعصاب ، يثير حفيظة المَسخُورِ منه ، مما يجعل أثر هذا الأسلوب أكثر في النفس ، وآلمَ للمشاعر .

"لذلك نجد هذا الأسلوب يتكرر كثيرا في القرآن الكريم يدمغ به الله المشركين، ويفضح المنافقين ، ويرد على سخرية الساخرين، وهزء المستهزئين" [٣] كقوله تعالى :

{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) } [٤]

فهم هنا يحاولون بيان سَفه أمر شعيب ، وتحقير دعوته من خلال هذا الاستفهام الذي يحاولون فيه أن يبينوا لقومهم أنّ هذا النبي يحاول صدّكم عن دين آبائكم وأجدادكم

[١] دلالات التراكيب ص ٢١٦
[٢] المطول ص ٢٣٨
[٣] أساليب الأستفهام في القرآن الكريم، عبد العليم فودة ، القاهرة ، المجلس العلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . ص ٢٤١
[٤] سورة هود أية ٨٧

بدعواه هذه . فاختاروا طريق السخرية من هذه الدعوة ليدلوا على أنها باطلة من أساسها ، لذلك هي مدعاة للضّحك والتّندر .

ومن أمثلته قوله تعالى " وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ"[1] ومنه قوله تعالى "سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ"[2] فالله تعالى يُبيّن حقارة أمرهم ، ويسخر من قولهم مطالبا إيّاهم بأن يحددوا كفيلهم الذي ضمن لهم دخول الجنة ، لِيبيّن سَفَه قولهم ، وكذبهم .

ومنه قوله تعالى "أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ"[3] فقد وبخ الله سبحانه وتعالى المشركين على هذه الدعوى الباطلة ، مستخدما أسلوب الاستفهام الذي يتضمن مع إنكاره لهذا الافتراء بيان سفاهة دعواهم وحقارة أمرهم ، وإظهار قصر نظرهم فكل هذه الأكاذيب ليس لهم عليها دليل .

والأمثلة على هذا النوع في القرآن الكريم يطول حصرها ، وليس من أهداف البحث تتبعها ، وإنما أراد البحث أن يعطي أنموذجا لاستخدام القرآن الكريم لهذا النوع من الأساليب . فإذا انتقلنا إلى الشعر للوقوف على هذا النوع من الأساليب نجد أن الشعراء قد أكثروا من استعماله في هجائهم[4] ومن ذلك قول زهير في هجاء آل حصن:

وما أدري وسوف أخالُ أدري أقومٌ[5] آل حصنٍ أم نساء ؟[6]

---

[1] سورة الأنبياء أية ٣٦
[2] سورة القلم آية ٤٠
[3] سورة النجم آية ٢١
[4] أساليب السخرية في البلاغة العربية ص ٩٣ بتصرف
[5] قوم يقصد بها الرجال ،. والدليل على ذلك أن المعادل بعد أم أتى النساء .
[6] ديوان زهير ابن أبي سلمى ـ حمدو الطمّاس ـ دار المعرفة ـ لبنان ـ بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م ص ١٣

إنّ استخدام زهير لأسلوب الاستفهام في هجائه لآل حصن فيه تندّر ، وإيلام في هجاء آل حصن ،لدرجة أنّه جعل المتلقي في حيرة من جنس هؤلاء القوم ، وهذا يعطي أبعادا جديدة للصورة التي سوف يرسمها عن شكل آل حصن مما يسبب لهم ألما أكبر من الوصف المباشر بعدم الرجولة، كما أن المساحة النفسية التي يتركها ذلك الاستفهام تعزز من وقع الهجاء على القوم وتزيد من شعورهم بالنّقص .

ومن هذا النوع قول المتنبي في هجاء كافور الأخشيدي :

من أيّة الطّرقِ يأتي مثلك الكرمُ أين المحاجِمُ يا كافور والجَلَمُ[١]

يستفهم المتنبي ساخرا ، فيوجه استفهامه إلى كافور الذي تبّدى للمتنبي تمثالا من المخازي لا طريق للكرم إليه ، فأية طريق للكرم نحو من هذه صفاته ، ثم يسيتفهم ثانية ويسأل كافورا عن محاجمه وأدواته التي لا يصلح أمره إلا بها ، أما الكرم فمما لا يصلح له ، بل ولا يهتدي لطريقه "[٢].

ومن نفس المثال قول المتنبي :

من علم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد[٣]

أم أذنه في يد النخـــــاس[٤] دامية أم قدره وهو بالفَلسين مردود[٥]

---

[١] ديوان المتنبي ج٢ ص ٩٤٩
المحاجم جمع محجمة وهي القارورة يحجم بها الجلد .والجلم أحد شقّي المقراض وهما جلمان . وروى الواحدي يأتي نحوك . يقول لا طريق للكرم إليك وكيف يصل إليك الكرم من بين المحاجم والمقاريض وذلك أنه يقال إن الذي اشتراه قديما كان حجّاما .

[٢] أساليب السخرية في البلاغة العربية ص ٩٣

[٣] الصيد : جمع أصيد وهو الملك العظيم .

[٤] النخاس : بائع العبيد

[٥] ديوان المتنبي ج ٢ ص ٩٦٠

فالمتنبي يستهزئ بكافور من خلال طرح تلك الأسئلة التي تؤدي في مجملها إلى جواب واحد هو أن كافورا ليس أهلا لهذه المكرمات ، لأنه ليس عربيا حرا يستحق أن يرتقي إلى معالي الأمور ، وإنما هو عبد لا يجيد إلا خدمة مواليه.

فإذا رجع البحث إلى استخدام البردّوني للاستفهام كأسلوب يبحر من خلاله " بحثا عن الحقيقة الكامنة خلف حركة الحياة في هذا الوجود ، لأنه الأسلوب الذي يصاحب الإنسان في تأملاته الكونية العميقة ، وينوب عن الإنسان في فرض نفسه ، لسبر أغوار النفس الإنسانية ، ولتفسير ظواهر الكون والطبيعة وعلاقات الناس ، وتمايز البعض دون البعض ، ومفهوم أسلوب الاستفهام من هذا المنطلق ، استطاع شاعرنا أن يوظفه في شعره" [١]

لقد كان البردّوني في حيرة عقلية كبيرة يريد أن يجد جواباً لها ، فانطلق يوزع تلك التساؤلات علّه يجد جوابا لما يعترك ظل صدره من هموم ومآسٍ ، أكثر السؤال لأنه وجد فيه روحا تعلو به من أرض الواقع إلى مرتفعات التفكير في جواب لكل ما يطرح من أسئلة وحلٍّ يفتش عنه في كل مخبأ، ويبحث عنه في كل زاوية ، وكأنه يريد أن يقول :

سؤالٌ عنك يحفرُ كلَ تلٍّ ويَسبر عنك أغوارَ الوهادِ [٢]

فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من تلك النبرة المستفهمة ، حتى أصبح الاستفهام علامة فارقة في وجه قصيدة البردّوني ، يبث من خلاله كل همومه وأحزانه :

مَنْ أُنادي ؟ وأنتِ صَمًّا سَمِيـــعَهْ بينَ صَوْتي وبينَ أمِّي قطـــيعَهْ

[١] عبدالله البردوني حياته وشعره ص ١٢٩
[٢] ديوان البردوني ج ١ ص ٤٠٤

من أنادي ؟ من ذَهُانا ؟ لم يُجِبني آهِ ، إلصّمتُ القُبورِ الصـــدَيعَهْ .

يا بلادي : أنثني أشغلُ التـفتيـــ عنّي ، وعَنْ بلادي الصّــريعَهْ [1]

إنها الحيرة التي تسيطر عليه فهو ينادي بلاده التي تسمعه لكنها لا تجيبه ، فبلاده تحمل مفارقة عجيبة فهي سميعة لنداءاته لكنها صامتة عن الإجابة ، لتكتمل الحيرة عند البردّوني عندما لم يجد جوابا إلا من خلال صمت القبور المتشققة . إن حيرة السؤال الذي يبحث البردّوني عن إجابته تسيطر على كل نغماته ، لتكتمل تلك المعاناة في عدم وجود الجواب ، فكل ما يحيط به من حياة هو مجرد قبر .

إنها الحيرة التي سيطرت على نغمات البردّوني فارتحل يبحث عن ذاته من خلال تلك التساؤلات .

مَنْ أنتَ ، واستبقَت جوابي لهبٌ يحنُّ إلى التـــهابِ

من أنت ، عـــزّاف الأسى والنار قِيثَارُ [2] العــــــذابِ

وعلى جبينك قصـــــّةٌ حيْرى كديـــجورِ اليبابِ [3]

وخواطر كهواجس الإفــ لاسِ في قلق الـــــمرابي [4]

وأنا أتدري :مـــن أنا قُلْ لي ، وأسكرها اضطرابي

سَلْ تمتمات العطر : هل نيسان يمرح في ثيــــابي

من هذه ؟ أسطورة الأحــ ـلامِ أخيلةُ الشّـــــهابِ [5]

---

[1] ديوان البردوني ج ١ ص ٣٦٨

[2] القِثَار ،القِثَارة : آلة طرب ذات ستة أوتار (المعجم الوسيط ص ٧٦٨)

[3] اليباب : الأرض الخراب

[4] تدوير البيت لي في الأصل

[5] ديوان البردوني ج١ ص ٤٢٠

إنها تساؤلات تعطينا حجم تلك الحيرة التي تسيطر عليه ، ومقدار ذلك الرفض الذي يجتاح داخله رغبة في إزاحة كل ما يعترض طريقه نحوالتقدم والانطلاق . الانطلاق الذي يحلم به لكنه يضيعه في زحمة الواقع ، فيرتد ذلك الانطلاق إلى صدى يرجّع صوت أمله . إن الاستفهام يلعب دوراً في تحفيز الشخص لرفض واقعه الأليم الذي يصوره من خلال التساؤلات بصورة بشعة ساخرة من المقدار الذي وصل إليه .

من ذا يناديني ؟ ويدنو من يدي حتى أَهِمَّ بلمسه، يتناءى

كيفستلرّ؟ وأستحيلُ ترقبا شذَرِهاً يُداري السُّهدَ والإغفاءَ

حتى يعودَ ...أكأأهُتِفُ باسمِهِ ويُريبني فأضيِّعُ الأسماءَ

مِنْ أينَ يدعوني ؟ وأنبُشُ لهفَتي عن ذَبْعِهِ وأفتشُ الإصغاءَ

وأمدُّ أسئلة يُمنّي بعضُها بعضا ويَضحك بعضُها استهزاءَ

من أين باحَ ؟ أمِنْ هنالكَ؟ وِلَّ أَمْ أنّهُ من ههنا يتراءى

من حيثُ لا أدري وأدري إنّه يعتادُني فيحيلُني أصداءَ [1]

لقد سافر البردّوني بحثا عن نفسه التي أضاعها داخل سراديب وطنه ، فأصبح لا يدري أهو يعيش داخل وطنه أم أن وطنه استحال إلى جوفه . تساؤلات حائرة حيرة البردّوني في وطنه .

من أين أنا ؟ من يدري أوليست لي جنسيّه ؟

نسبي راياتٌ حُمْرٌ وفتوحاتٌ ذهبيَّه

فلماذا تستغربُني هذي الزّمرُ الخَشَبيَّه

[1] ديوان البردوني ج ١ص ٤٩١

يا إخواني أصلي مِن صنعاء أُمّي دُبــَــعيّه

صنعاويّحُجري ما صنعاء ما الحُجَرِيّه ؟[1]

إنّها الغربة التي يعيشها البردّوني داخل وطنه ، والتي يعبّر عنها بسخرية لأنّه داخل وطنه ولا يشعر بوطنيته.لقد حاول البردّوني من خلال تساؤلاته المبنية على المفارقة أن يسخر من الحال التي وصل إليها .

من أين أنا ؟ تشـــويني بتغابيها السخريّه

عربيٌّ لا تــــعرفني ... حتى الدنيا العربيه

وأبي قالوا يمنــــــيّ أمي قالوا يمنـــيّه [2]

إنها رحلة البردّوني إلى المجهول الذي لا يدري من أين يبدؤه ؟ ومن أين ينهيه.

وبلادُ بلادي منــفى ومتـلهاتٌ أبديّه

من أين أنا ؟ مجهولٌ جوّالٌ دونَ هويّه

وبلا وطن لكنـــــّي موهوم بالوطنـيّه[3]

مع كل هذه الحيرة إلا أنه يأمل في عودة صنعاه عزيزة كما يريدها ، تعلوها مهابة الشرف ، وتكسوها جلالة القدر .

أصنعا .ولكن متـــى تأنفينَ يقولون قد كُنتِ يوما مُنيـــفَه

متى منك تمضينَ عَجْلى إليـك تريْنَ اخضرارَ الحياةِ النَّظِيفَه

أمِنْ قلبِ أُغنيَةٍ مِن دمـــــوع ستأتينَ ؟.أَمْ من حنايا قذيفَه[1]

---

[1] ديوان البردوني ج ١ ص ٦٠٧

[2] المرجع السابق ج ١ ص ٦٠٧

[3] المرجع السابق ج ١ ص ٦٠٩

يحاول البردّوني أن يستثير همة وطنه من خلال طرح هذه الأسئلة القاسية ، والتي يحاول من خلالها أن يعيده إلى مجده التليد . لم يقتصر البردّوني في ركوبه موجة التساؤلات على البوح بما يريد من هموم فقط وإنّما أخذ يفلسف تلك الأسئلة ، ويجعلها مطية للوصول إلى سخريته ممّا يحصل في البلاد . ففي قصيدة سندباد يمني في مقعد التحقيق يبث تلك التساؤلات الساخرة الموجهة لنقد تلك التصرفات التي تمارس ضدّ أفراد الشعب .

كما شئت فتشْ ...أين أُخفي حقائبي أتسألني من أنت؟ ..أعرفُ واجـــــبي

أجِبْ ،لا تُحاولْ ، عمُركَ الإسمُ كاملا ثلاثون تقريبا ...مثنّى الشـــــواجبي

نعم أين كنتَ الأمسِ ؟ كنتُ بمرقَدِي وجمجُمتي في السجنِ في السُّوق شَارِ بي

رَحلْتَ إذنْ ، فيمَ الرحيلُ ؟ أظنّهُ جَديدا، أنا فِيهِ طريقِي وصـَـــاحِبِي

إلى أين ؟ من شَعْبٍ لثانٍ بداخِـلِي متى سوفَ آتيحين تَمضِي رَغائبي

جوازا سِيَاحيّا حملتَ ؟ جَـــنَازةً حملتُ بجلدي فوقَ أيدِي رَوَاسِـبِي

.بمِن الضفة الأولى رحلتُ مـــهدّما إلى الضفة الأخرى ، حملتُ خـرائبي[2]

إن أكثر ما يُميّزُ هذا النص هو ميل البردّوني إلى أسلوب الحكيم ، حيث كان المحقق يسأل عن أشياء فيجيب البردّوني بما يهم الشعب ، وليس بما يريد ذلك المحقق ، وكأنه يقول كان الأجدر بك يا سيدي أن تحقق هذه الأمور بدلا من سؤلك عن أشياء لا تنفع الشعب ، فالواجب عليك خدمة الشعب ، والبحث عن مشاكله . لينطلق البردّوني في

[1] المرجع السابق ج ١ ص ٦٩٣
[2] المرجع السابق ج١ ص ٧٦٥

سخريته من الواقع الذي يعيشه المواطن ، مطالبا بتغيير هذا الواقع بريشة الفنان الواعظ .

تحدّيت بالأمس الحكومةَ ، مـــجرمٌ رهنتُ لدى الخبّازِ أمسِ جـــواربي

منِ الكاتبُ الأدنى إليكَ ؟ ذَكـــرْتُه لَدَيهِ كَمَا يبدو كتابي وكاتـــــــــبي

لدى الخمّارِ ، يكتبُ عنْدَهُ حسابي ، ومَنْهى الشهرِ ، يَبْتَزُّ راتبي

قرأتَ لهُ شيئا ؟ كؤوسا كثيـــــــــرةً وضيعتُ أجْفَاني ، لديهِ وحَاجِـــبِي

قرأتَ كما يحكونَ عَنكَ قـــصائدا مهرّبةً بل كنتُ أوّلَ هــــــارِبِ

أما كنتَ يوما طالبا؟ كنتُ يا أخي وقد كان أستاذَ التّلاميذِ طــــــالبِي

قرأتُ كتابا مرةَ ، صرتُ بــــعدَهُ حمارا ، حمارا لا أرى حَجْمَ راكبي[1]

يتضح من النص السابق المقدرة الكبيرة لدى البردّوني في السخرية من كل ما يحيط به ، سخرية يوجهها لبناء ما يراه محتاجا للبناء.وكأنه يقول للجميع أفيقوا من سباتكم ، يعذبهم بسياط سخريته ليجد فيهم أملاً حيّا ينشده ، يعاقبهم بلسعاته الساخرة عّلها تجد طريقا إلى إحياء أمته .

---

[1] ديوان البردوني ج١ ص ٧٦٥

٢ ـ المبالغة :

الأسلوب الثاني الذي حاول البردّوني أن يسخره للتعبير عن سخريته هو المبالغة . وقبل الولوج في طرائق البردّوني التي اعتمد فيها على المبالغة الساخرة يحاول البحث الوقوف على معنى مبسط للمبالغة .

يقول ابن منظور في مادة (بلغ) :بَالغ يَبالغُ مبالغة وبَلاغَا إذا اجتهد في الأمر ... والمبالغة أن تبلغ في الأمر جَهْدك " [١].ويوافق ابن منظور الأزهري عندما عرّف المبالغة بقوله : " المبالغة أن تبلغ من العمل جهدك " [٢]،ويذهب الزمخشري لقريب من هذا المعنى فيقول : " وتبالغ فيه المرض والهم إذا تناهى " [٣]

هذا بالّنسبة للتعريف اللغوي للمبالغة فإذا رجعنا لتعريف المبالغة اصطلاحا فإننا نجد أن هذا المصطلح لم يقف عند رأي واحد ، وإنما تعددت فيه الأقوال " لكنها تجتمع في النهاية لكي تفيد أن المقصود بها أن يتعدى الشاعر في قوله حدود المعروف أو المعقول " [٤].

ونبدأ بما قاله قدامة بن جعفر في تعريفه للمبالغة " أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد له وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

[١] لسان العرب مادة بلغ .
[٢] تهذيب اللغةج٨ ص ١٣٩
[٣] أساس البلاغة : بلغ
[٤] انظر المبالغة في الشعر العباسي ـ عبد العزيز الشبيلي ، النادي الأدبي بالرياض ، ١٤٠١هـ ، ص ١٥

فإكرامهم للجار ، ما دام فيهم ، من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم إياه الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل[١] .ويعلق أبو هلال العسكري على البيت بأن المبالغة فيه بذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكده ، ويلحق به لاحقة تؤيده .[٢]

ومثل ذلك قول الحكم الخُضريّ :

وأقبح من قرد وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف[٣]

فقد كان يجزي في الذم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، والمبالغة في هجائه قوله "هو غرثان أعجف " ، فالكلب بخيل على ما ظفر به ، وهو أشد بخلا إذا كان جائعا أعجف [٤]

ومن هذا الجنس لدريد بن الصمة :

متى ما تدع قومك أدع قومي فيأتي من بني جــشم فئام[٥]

فوارس بهمة حشـــد إذا ما بدا حُضْرُ الحيية والحَلمُ[٦]

والمبالغة الشديدة في هذا الشعر هي قوله الحيية " [٧]

إذ إنّ قدامة يجعل المبالغة هي الزيادة عن المعنى المراد إيصاله للمتلقي ، فكل زيادة عن القدر المؤدي لفهم المعنى هي مبالغة .

---

[١] نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ص ١٤٦

[٢] انظر الصناعتين، لأبي هلال العسكري،حققه مفيد قميحة، بيروت،دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ ص ٣٧٨-٣٧٩

[٣] غرثان : الجائع . أعجف : النحيف الذي ذهب سمنه .

[٤] انظر الصناعتين ص ٣٧٨-٣٧٩

[٥] فئام : الجماعة من الناس

[٦] حضر : ارتفاع الفرس في عدوه .الحيية : السكوت المتحشمة . الحذام . الرجل القصير قريب الخطو .

[٧] نقد الشعر ص ص ١٤٦ ـ ١٤٧

فإذا رجع البحث لأبي هلال العسكري وجد ه يعرف المبالغة بقوله :

"المبالغة أن تبلغ أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة على أدنى منازله وأقرب مراتبه، ومثاله من القرآن قول الله تعالى: "يوم تذهل كل مرضعةٍ عمّا أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى النّاس سكارَى وما هم بسكارَى". ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسناً وبلاغة كاملة، وإنما خص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها ليلاً ولانهارا، وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف، ولهذا قال امرؤ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضع فألهيتُها عن ذي تمائمَ محولِ

لما أراد المبالغة في وصف محبّة المرأة له، قال: إني ألهيتها عن ولدها الذي ترضعه لمعرفته بشغفها به، وشفقتها عليه في حال إرضاعها إياه. وقوله تعالى: { كسراب بقيعة يحسبُهُ الظّمآن ماءً}. لو قال يحسبه الرائي لكان جيّدا، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن، لأن حاجته إلى الماء أشد، وهو على الماء أحرص، [١]

كل ما سبق يشير إلى أن المبالغة تحمل في طياتها معنى واحدا هو الزيادة، وهذا المعنى هو الذي ترسخ حتى في استخدام النحاة في مناقشة زيادة المبـــاني في الكلمة " ففكرة المبالغة هنا تدل على زيادة في المعنى لزيادة الحروف ، فالزيادة في معنى أي اشتقاق عن النواة الأولى لذلك الاشتقاق هي التي سماها الخليل المبالغة . " [٢]

[١] الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩
[٢] المبالغة في البلاغة العربية ص ١٧

وليس معنى هذا أن كل التعريفات تندرج تحت هذا المعنى ، وإنما هناك تعريفات كثيرة للمبالغة ، لم يشأ البحث تتبعها بكل تفصيلاتها ، وإنما سار البحث مع أكثر هذه التعريفات دورانا على ألسنة النقاد . لأننا نجد من النقاد من يقسم المبالغة إلى تبليغ ، وإغراق ، و غلو ، ولكل قسم من هذه الأقسام تعريفات خاصة به ، ولكل قسم من هذه الأقسام حكم في القبول والرفض ، والبحث في مسيرته لا يريد تقصى دلالات المبالغة ، وتقسيماتها ، والوقوف مع المقبول منها والمرفوض في أحكام النقاد ، وإنما أراد أن يقف على أهم تلك المعاني التي اصطلح عليها النقاد في تعريفهم للمبالغة ، وهي قولهم بأن المبالغة هي الزيادة على المفترض .

ومن قاعدة أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ترسم تلك الصورة عن المبالغة ، واستخدام بعض الأدباء لها في مواضع السخرية ،

فهناك " جانب مسل من جوانب المبالغة ذلك هو المبالغة الساخرة ، وهي التي يعتمد فيها الشاعر على الوصف الساخر عن طريق التجسيم والتفخيم للأشياء، والأوصاف حتى تبدو في صورة مبالغ فيها فتثير في نفس السامع الضحك و التندر " [١]

فالمبالغة التي تزيد عن حدها قد تخرج إلى معنى السخرية ، لما فيها من زيادة عن الحد المقبول يخرج بها إلى باب الغلو الذي يقود في بعض الأحيان إلى السخرية من هذا الموصوف ومثل ذلك قول البحتري واصفا شخصا يقال له الخثعمي ، وكان كبير الأنف :

رأيت الخثـــــعمي يُقِلُّ أنفا يَضيقُ بعرضه البلدُ الفضاءُ

[١] المبالغة في الشعر العباسي (أسبابها ـ أنواعها ـ مظاهرها ـ نماذج لها)، محمد الربيع ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣

سَمَا صَعُدا فقصّرَ كُلُ سامٍ لهيبته وغــــص ّ به الهواءُ

هو الجبلُ الذي لولا ذراه إذاً وقعت على الأرض ِ السماءُ [١]

فجملة يُقلُّ تعطي مقدار الثقل الذي يعانيه هذا الرجل ، والمعاناة التي يتكبدها في حمل هذا الأنف ، ليصل إلى قمة تلك المبالغة عندما يشبه ذلك الأنف بالجبل الذي ترتكز عليه السماء ، لكي لا تقع على الأرض ، فالمبالغة في وصف أنف هذا الرجل قادته للخروج إلى معنى التندر والسخرية به .

ولو وقفنا مع أبي نواس وهو يصف بخل رجل اسمه سعيد ، وكيف يهتم برغيفه ، لوجدنا قيمة هذا الأسلوب في إثارة الضحك ، وإيلام المهجو .

رغيف سعيد عنده عِدلُ نَفسِــهِ يقلبه طورا وطورا يلاعــبه

ويخرجه من كـــــمه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه

عندما يجعل الشاعر الرغيف مساويا في المنزلة للنفس نقول إنه بالغ في وصف هذا الرجل بالحرص والبخل ، ثم يستمر في مبالغاته زاعما أنه يستمتع بقضاء وقته في مداعبة الرغيف ومخاطبته .

فهذه الزيادة في الحرص مبالغ فيها ، لدرجة أنها تثير ضحك المتخيل لها ،و تكون أكثر أثرا في هجاء هذا الشخص البخيل .

إذاً المبالغة في الوصف تُخرج المعنى من حقيقته إلى الذم والسخرية من الموصوف ، وهو ما يريد البحث أن يصل إليه ، في تتبع هذا الأسلوب عند البردّوني ، في رحلته مع السخرية . لقد رسم البردّوني بمبالغاته نوعا من الجسر الذي حاول أن يجعله

[١] الأدب العربي وتاريخه ج ٢ ص ٣٥٠

مركب عبور إلى همّ أمته ، وتطلعات مستقبله. فعندما يصف حالته مع الفقر نجده يبالغ في ذلك الوصف قائلا :

كيف كنا نقتات جوعا ونعطي   أرذل المتخمين أشهى المطاعم

وجراحاتنا على باب مـــولا   نا تقيم[1] الذباب منــــها ولائم[2]

لقد عبر البردّوني عن قلّة الحال بقوله : نقتات ليزيد في مبالغته عندما جعل القوت هو الجوع نفسه ، لينتقل إلى الصورة المقابلة عند من يجد الطعام مستمرا في مبالغته عندما جعلهم من شبعهم يصلون إلى درجة التخمة ، ولا يكتفون بالطعام فقط ، وإنما يبحثون عن أشهاه . ثم ينتقل إلى قمة المبالغة عندما يصور تلك الاحتفالية الضخمة التي يقيمها الذباب ، وتكون معاناتهم وجراحاتهم على باب الحاكم ، هي الوليمة التي تدق طبول الذباب عليها ، وتتجمع أسرابه لتحتفل على مائدتها . صورة ينقلها البردّوني من عالم المبالغة لتوضح مقدار المعاناة ، وعظم الألم . مبالغة ساخرة يحاول من خلالها أن يوصل رسالة للمسئول يذكره فيها بما تعانيه الرعية . معاناة تدق طبول الاحتفالات لها لكنها احتفالات ذبابية ، تتلذذ بمعاناة شعب .

لم يتوقف البردّوني عند هذا الحد من وصف المعاناة بل يستمر في إخراجه لصورها على نحو خاص به :

دخلت الحواري ، ومنها خرجـ   ت بدكتورة الذّل والمســـغبه

عرفت القرارات رغم السطو   ح كما تعرف الخنجر الأرنبه

قتلت مـــــــــــرارا فزد مرّة   يحسوا بأن القتـــيل انتبه [1]

---

[1] تقيم الذباب ، هكذا في المصدر ، والصحيح يقيم الذباب .
[2] ديوان البردوني ج١ ص ٣٨١

لقد تفنن في وصف الذ ّل لدرجة أنه جعله يدرس ويأخذ فيه شهادة ، وقد ترقى شاعرنا في دراساته المتخصصة في الذ ّل والحرمان حتى تخرج بأعلى الدرجات الحرمانية .
لقد ركّز البردّونيعلى أن يجعل الذ ّل الذي عاشه ذلا ليس أمرا عابرا وإنما هو ذلّ بالتخصص ، ذلّ يمنح المتخرج منه أعلى الدرجات .

ولم يكتف البردّوني في هذا المشهد بالوقوف عند توصيف حدّ الذل بل نراه يعود لمبالغاته عندما يطلب من ذلك القاتل رغم تكراره للقتل أن يعيد الكرة مرة جديدة علّهم يحسون بأن هذا القتيل انتبه لما يتعرض له من قتل ، فهنا يمارس البردّوني إسقاطاته على القاتل الذي لا يرعوي عن ممارسة هوايته مرة بعد مرة ، وعلى المقتول الذي لا تثيره مرات القتل ، و إنما يرضى بها.ويصل إلى قمة المبالغة في سخريته بقوله (انتبه) فمع كل ما تعرض له من قتل فهو بالكاد يصل إلى درجة الانتباه فقط ، وكأنه لم يشعر بكل ما حصل له سابقا .

ويستمرّ البردّوني في وصفه لجوعه و ما يعانيه من حرمان ، وكيف أن ما يملكه هو تلك الذبابات التي يعدها نقوده :

من ذا يذبّ النقود يا أمّ عنّا ؟ أصبحت فوقنا الرؤوس عجينا

أمُّ ، هذا الذباب يُدعى نقودا فلتذبّي هذا الوباء الثّميـــــنا

أنت في عُريك الحقيقيِّ أبهى من حُلـًى تمتطيك جوعا بَطــينا [٢]

ليصل في فلسفته في المبالغة إلى درجة رؤيته أن الموت بالنقود أشد من الموت نفسه.

أمســـــــيت لغوا يا ردى والقتل كالمقتول ســـاهي

---

[١] نفس المرجع السابق ج٢ ص ٨٢٣
[٢] نفس المرجع السابق ج٢ ص٨٤٦

من ذا تُميت ، وكلـــــــهم ما توا وأنت هناك لاهي ؟

سبقتك أمركة المـــــذا بح أيها الشيخ الرّفـــــاهي

اليوم للشـــّـــيك الأوا مر للمُدى كلّ النّـــــواهي

أصبحتَ يا موتُ َ احتياطا مثلَ أبطال الــــــمقاهي

قد كنتُ آجـــــالا وجا ء القتل فاخترق اتّجـــاهي

أتَخالُ ذبحَــللشّيك أم هرَ من يدِ الحتْفِ الإلهـــي ؟ [1]

لقد بالغ في جعل الموت يُعد في المرتبة الثانية في المقدرة على القتل ، بل جعله اللاعب الاحتياطي في مقهى القتل . ليكون الشيك ، وهو رمز المال هنا أقدر ، بل أمضى في القتل .

وفي قصيدته عام بلا رقم يبحر في مبالغات في وصف ذلك العام ، يحاول من خلالها رسم تلك الصورة السوداوية عن واقعه .

وجهه بيدر الـــــجثث ظهره مركب التّفث

صبحه الرّثُ كـــالدّجى وهو من وقته أرَث

كلّ مجرى فصــــولهِ جدثٌ يقتفي جــدث

أهو أقصى مدى الأسى ؟ أم بداية العـــبث ؟ [2]

إن سخريته من هذا العام تتمثل في عدم معرفته بما يحمله هذا العام من أحداث مأساوية جديدة ، فهو لا ينتظر من هذا العام مواكب فرح يزفها للناس، وإنما كل ما يرجو أن لا تكون مصيبته أعظم من سابقه ، مع أن كل ما فيه لا يبشر بخير .

[1] نفس المرجع السابق ج٢ ص٩٨٧ ـ ٩٨٨
[2] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٠١٤

يقودنا بعد ذلك إلى ليلته التي مرت عليه متخفية شديدة الحذر ، فيصورها مبالغا في تلك الصورة وهو يعبر عن ليلة من طراز زمانه القاسي .

دنت كزيارة الجـــاسوس ومثل غرابة الكـــابوس

وكالرّحّالة المــــــحنيّ ومثل الهارب المحبوس

ومثل توغل المـــــحت ل مثل تعقّل المـــــمسوس

تخالــــــــــسني كأمّيّ يقلب دفترا مطـــــموس

تحن إلى المدى الأخفى وتستغني عن الـــملموس

كوحش ماله وصـــف ولا رســـم على القاموس [1]

إن مبالغته في وصف تخفي هذه الليلة يقودنا إلى مقدار ما يعانيه من ترقب، وهم يعايشه في انتظار رحيل تلك الليلة ، ليبلغ قمة المعاناة عندما يصفها بالوحش الذي لم ير مثله ، بل لم تصل ريشة أعظم المتخيلين لرسم بشاعة منظره .

ينتقل بعد ذلك إلى وصف صعلوك من هذا العصر :

كان يحس أنه خـــــــرابه وأن كل كائـــــــن ذبــــابه

وأنّ في جبيــــــــنه غرابا يشوي على أنفاسه غرابـــــه

وأنه نقّابةٌ طـــــــــــموحٌ وشرطة تسطو على النّـــقابه

وبعضه يلهو بهـجو بعض وكلّه يستثقل الدّعـــــــابه

وتارة يرى البـــحور كأسا في كفّه والعالم استـــــجابه

وأنّ في قمــــــــيصه نبيّا أغنى عن الإعجاز والصّحابه

[1] نفس المرجع السابق ج٢ ص ١٠١٦

وأن إبليس عـــــلى يديه أتى يصلي صادق الإنـــــابه

وأنّ هارون الرشيد يرجو في بابه التشريف بالحـــجابه [١]

إن هذه المبالغات في تخيلات هذا الصعلوك تدل على رفض لواقع معاش ، وحلم بحياة أفضل يراها في خيالاته ، ويحلم بأن تكون في الحقيقة . إن المبالغة هنا ترتسم في تلك التناقضات التي يعيشها هذا الصعلوك ، فيقوده عجزه إلى تصور غير الممكن في صورة الممكن ، وغير المنطقي في جلباب المنطقي . ليصحو في نهاية المطاف من حلمه ، ويرتطم من علو زهوه على أرضية واقعه المحطم .

ينزف جرحه ألما لأنه مواطن بلا وطن :

مواطن بلا وطن لأنه من اليمـــــن

تباع أرض شعبه وتشترى بلا ثمـــن

يبكي إذا ســألته من أنت ؟ أنت من ؟

لأنه من لا هـنا أو من مزائد الـــعَلَن [٢]

إن مساحة الغربة التي يعيشها هذا المواطن هي أنه متغرب في وطنه ، وتكمن المبالغة في ذلك التعليل بعدم وجود الوطن وهو أنه من اليمن ، ليصل إلى قمة المبالغة في تعبيره عن تلك الحيرة التي ترتسم عليه عندما يُسأل عن وطنه ، فتفيض دموعه مجيبة عن ذلك السؤال المؤلم ، فلا يستطيع أن يذكر موطنه.

ليصل به الأمر إلى حالة من عدم فهم النفس ، تجرها أسئلة عن حياته ، وطبيعتها التي أصبحت غامضة عليه .

---

[١] المرجع السابق ج٢ ص ١٠٤١
[٢] المرجع السابق ج٢ ص ٦١٩

من نحن يا صروح يا يُـَ ـــتّمُ موتى ...ولكن ندّعي ...نزعمُ

ننجر ... لا نمضي ... ولا ننثني لا نحــــــن أيقاظ ...ولا نومُ

نغفو بلا نوم ونصـــــــحو بلا صحو ...فلا نرنو ولا نـــحلمُ

كم تضحك الدنيا وتبكي أســى ونحن لا نبكي ولا نبســـــمُ

فلم يعد يضحكنا مضــــحك ولم تعد آلامنا تـــــــــؤلمُ

أضاعت الأفراح ألوانــــــها وفي عروق الحزن جفّ الـدّمُ

ماذا ..؟ ألفنا طعم أوجاعــنا أولم نعد نشتمّ ... أو نطـــــعمُ ؟ [١]

لقد ركز مبالغته في هذه الأبيات على الحالة التي يشعر بها فهو في حالة لا يستطيع معها أن يفسر ما وصل إليه الشعب من خضوع ، فلا تحركه المآسي، ولا تضحكه المضحكات ، وكأنه يرسم حالة التبلد التي أصابت شعبه، حتى إنه أصبح يشك في مقدرتهم الطبيعية في الإحساس ، وتعودهم على المذلة .

ثم نقف معه مع محنة شعبه لما استعرت نار القتل فيه ليصف تلك المعاناة بأجمل الأوصاف :

أسرفت في التقتيل ، يهزمُ نصرَه من يستلذ القتل والإســـــرافا

حتى قطعت مع الرؤوس ذيولــها هل سوف تقطع بعدها الأردافا ؟

ماذا ستصنع حين تصـــعد أرؤسا تلك التي لمّا تزل أكـــــــتافا ؟

أضنى دمُ الأعناق سيفَك هل روى كيف اقشعرّ من النـــجيع وخافا

لو كنت لاستعطاف أيّ مـــؤملٍ أهلا ، لذاب حسامك استـــعطافا

[١] المرجع السابق ج١ ص ٦٣٨

أيُقال : عف ابن الحديد عن الدمّا وابن الأئمة لا يطيق عفافا

ويُقال : أمسى (نافع)[1] مستخبرا أأجعته كي يأكل الأضيافا ؟ [2]

لقد بالغ البردّوني في وصف كثرة القتل الذي جعله يبلغ حدّ الإسراف ، وكأن هذا القاتل لا يقتل وإنما يبذر مالا ، يلهو به ويتمتع بإنفاقه . ليصل إلى درجة عالية في المبالغة حين يجعله يقطع رؤوسا لمّا تنبت بعد ، وكأنه يقول إن من كثرة ما قتل هذا الرجل يخيل للناظر أنه سيقطع كل الرؤوس حتى التي لم تنبت بعد . ليصل إلى قمة المبالغة عندما جعل حسام هذا الرجل يخاف من منظر الدم ليأتي بذلك الاستفهام الاستنكاري الذي يؤنب به القاتل فكيف يعفّ السيف وهو من حديد ، ولا يطيق ابن الكرام أن يعفّ .

ثم يتجه بحيرته إلى السجن الذي يستضيفهم ويجري الاستفهام على لسانه لكي يصل إلى ذروة المبالغة في التعجب ، فهو يستفهم منك هل أجعته هذه المدة الطويلة كي يأكل ضيفانه ، والتعبير بالضيف هنا رائعة من البردّوني دلالة على الزيارة الأولى ، أو الزيارة غير المعتادة ، فمن يجلس في هذا السجن لم يعتده حتى يصبح من أهله ، وإنما هو ضيف جاء به القدر ، فحري به أن يكرم بدل أن يهان ويعذب .

لقد جعل البردّوني من المبالغة مطيّة له يركبها في الوصول إلى إبراز ما أراده من أفكار ، فهو عندما يريد أن يصور معاناته يحملها فوق ما تحتمله ، ويركبها الصعب الذي لا تستطيعه وعندما يريد أن يبين أوضاع مجتمعه يجعلها جحيما لا يحتمل ، ومأساة لا تتصور . والهدف من كل هذه المبالغات هو تحريك كوامن النفوس ،

[1] نافع :اسم لسجن في حجّة
[2] ديوان البردّوني ج٢ ص ١٥٠٩

وإثارة جوامد الإحساس لأنه يرى أن جلد الروح قد يقودها إلى التغيير ، التغيير الذي يرى فيه عزّ أمته ، وارتفاع شأن شعبه .

متى يفيق هــــــهنا شعب يعي تنـــــبّهه ؟

وقـــبل أن يرنو إلى شيء يرى ما أتفهه ...

فينتقي تحت الضّحى وجوهه المـــــــنزّهه

يمضي وينسى خلفه عاداته المسّــــــــفهه

يفنى بكـــــــل ذرّة من أرضه المـــؤلّهه

هنا يحـــــــس أنّه مواطن له وطـــــــن [1]

[1] المرجع السابق ج١ ص ٦٢٢ـ ٦٢٣

٣ ـ التكرار :

التكرار مصدر ، فعله كرر ، بمعنى ردّد وأعاد ، يقال كرر يكرر وتكرارا وتَكِرّة ومنه الكرُّ وهو الرجوع ، يُقال كرّ يكرُّ كرّا وكرورا وتكرارا [١] ، يفهم من السابقة أن معنى التكرار هو الإرجاع ، ومن هنا وجدنا أن الكثير من العلماء يجعلون معنى التكرار هو إعادة اللفظ ، أو المعنى فعند الوقوف على تعريف ابن الأثير له نجده يقول : هو الدلالة على المعنى مردّدا [٢] ، ثم نجده يقسمه إلى نوعين نوع يوجد في اللفظ والمعنى والآخر يقتصر على اللفظ دون المعنى [٣] ، ويعرفه ابن حجة الحموي بقوله :إنّ التكرار هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى [٤] ، فإذا وقفنا عند تعريف ابن معصوم نجد أن الكلام يتكرر إلا في شرطه الذي ساقه ، حيث يقول في تعريفه : عبارة عن تكرار كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتة [٥] ، ونقف هنا على كلمة لنكته لنفرق بها بين نوعين من الاستخدام للتكرار، نوع نجده عند النحويين وهو أن النكتة من التكرار هي التوكيد ، فكل أنواع التكرار تفيد التوكيد عند النحويين ، سواء كان لفظيا ، أم معنويا ن لكن البلاغيين لا يحصرون الفائدة على التوكيد فقط ، بل على التوكيد وغيره من الفوائد التي يعطيها التكرار ، فالتكرار يضع في ايدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشاعر ، ومن ثم يغدو بمثابة الضوء الذي يسلطه

---

[١] انظر ك مختار الصحاح ن ص ٥٦٧ ن ولسان العرب ٠ كرر ٥ / ١٣٥ ن والقاموس المحيط (كرر) ٦٠٣

[٢] المثل السائر ، ضياء الدين بن الأثير ، تقديم أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار النهضة ، مصر ، ط٢ج ٣ ص ٣

[٣] انظر المثل السائر ج٣ ص ٣

[٤] خزانة الأدب وغاية الأرب ، ، ابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو بيروت ، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧ م ، ط١ ج٢ ص ٤٤٩

[٥] انوار الربيع في أنواع البديع ج ٥ ص٣٤٥

الشاعر على الأعماق كي يسهل الاطلاع على خباياها وعلى اللاشعور الكامن فيها [١]
إذاً التكرار لا يعنى التوكيد فقط وإنّما الغوص في داخل النص للبحث عن أسباب تكرار للشاعر للفظ او المعنى ، فهو إذاً أسلوب يكشف ما قد يقع خلف الكلام كما أنه يدعو المتلقى إلى التساؤل والبحث عن السبب ، مما يقود المتلقى للوقوف على الحقيقة الكامنة وراء استخدام مثل هذا الأسلوب .

ولو تجولنا في رحاب ساحة البردّوني الأسلوبية لوجدناه يعتمد على التكرار كأسلوب ، خاض به غمار تجربته الشعرية ، ليقف معه على مرسى بوحه الذاتي ، ويعبّر من خلاله عن معاناته مع شعره أولا ، و حزنه من واقعه ثانيا .

فعندما يبدأ قصائده بتلك التساؤلات المتكررة، هو يبحث عن شيء دفين داخل النص :

لماذا المقطف الدّاني بعيد عن يد الـــــعاني ؟

لماذا الزّ هـــــر آنيّ وليس الشّــوك بالآني ؟

لمــاذا يقدر الأعتى ويعيا المرهف الحاني ؟[٢]

لقد دق البردّوني بلفظة لماذا جرس إنذار يوقظ به القلوب ، ويحيى به أموات أمته ، فكان وقعه في بداية النص كبداية لموجة مواجهات ، عاصفة تحملها ثنايا النص القادمة ، وكأنه في هذه البداية يقول للقارئ استعد فأنا أنذرك بعاصفة قادمة قد قرعت لها أجراس الخطر ، ليس هذا فقط ، وإنما تلمح سخرية من أوضاع غيرت معالمها ، فلا ينال حقه المستضعف ، بينما يأخذ القوي كل ما يريد . لم يكتف البردّوني في

---

[١] شعر الرثاء في العصر الجاهلي ص٢٥٠
[٢] ديوان البردوني ص ١١٢١

إثارة القارئ لما يقرأ ، وإنما ذهب ليبين تلك المأساة التي كأنه يعيشها من خلال التكرار

أنا من أنا ؟ الأشـــوا ق والحرمان والشكوى أنا

أنا فكرة ولهى معانيـ ـها التضـــــــنّي والضّنى

أنا زفرة فيها بكاء الـ فقر آثام الـــــــــغنى [1]

عبّر البردّوني بتكرار لفظة (أنا) ليقول إنّ ما يعانيه يفوق حد الاحتمال، حتى إنّه أصبح يعيش المأساة بكل تفاصيلها ، بل إنه أصبح المأساة نفسها ، لذلك وجدناه يؤكد ذلك المعنى في شعور المتلقي من خلال تكرار لفظة (أنا) التي كانت تجسيداً لتلك المعاناة .وسخرية المتوجع الذي عانى الفقر، والجوع ، والظلم ، حتى إنّها أصبحت شخصه ، وعنوانه ،لنجده بعد ذلك يقف مع حياته شاكيا جورها ، ومتألما من ظلمها ، في نداءات، كأنها صرخات مستجير

يا حياتي ويا حياتي إلى كـــم أحتسي من يديك صبلاً وعـــــلقم

ما حياتي إلا طريق من الأشـ ـواك أمشي بها على الجرح والدم

يا حياتي وما حياتي وما مــعـ ـنى وجودي فيها لأشقى وأظـــلم [2]

صرخات كررها البردّوني في سياق قصيدته ، وكأنه يقول هذه هي الحياة التي أعيشها فهل من سبيل إلى تغييرها ، كرر البردّوني لفظة الحياة وكأنه يقول ما أجمل نطقها في الفم ، وما أقساها في المعايشة ، تلذذ البردوني بنطقها وقاسى في العيش فيها .صرخات تحيّر البردّوني لمن يوجهها ، حيرة اجتاحت ذاته ، وكبلت قدراته

[1] المرجع السابق ص ١٣٥
[2] المرجع السابق ص ١٣٧

لمن الهيام ؟ لمن تذوب هياما ؟ ولمن تصوغ من البكا أنغاما

ولمن تسلسل من ضلوعك نغمة حيرى تناجي الليل والأحلاما

ونشائد جرحى اللحون كـــأنها من رقة الشكوى قلوب يتامى

يا شاعر الآلام كم تدمى وكـــم تبكي وتحتمل الهموم جساما

خففّ عليك وعش بقلبك وحده واسأل نهاك لم البكا وعــلاما [١]

فكان تكرار السؤال (لمن) وكأنه صرخة تبحث عن إجابة ، تجول في كل ثناياه لكنها تصطدم بواقعه المعاش ، فيكون الجواب الذي لا يريد حتى سماعه لذلك هو يضيء تلك الشمعة التي ترسم الأمل البعيد حين يزرع في قلبه نبتة الأمل التي تحول همومه ومعاناته إلى مستقبل مشرق يحلم به.

في قلبك المهموم ألف خـميلة تلد الهموم أزاهرا وخزامى

جلت هموم الشعر إن دموعها فنّ يدير من الدموع مـداما [٢]

هموم يحركها السؤال ، فيكون كسوط يضرب مشاعره ، لذلك هو يريد أن يوجهه للمعاناة الحقيقية بدل أن يكون سؤالاً عن المشاهد

لا تسألي يا أخت أين مجالي ؟ أنا في التراب وفي السماء خيالي

لا تسأليني أين أغــلالي سلي صمتي وإطراقي عن الأغـلال ؟ [٣]

لقد تعود البردّوني على الأغلال حتى صارتجزءاً من حياته اليومية،وأصبح الناس يستفسرون عن حالها،مثلما يستفسرون عن حاله. فكانت رمزا يدل على البردّوني ،

[١] المرجع السابق ص ١٧٤
[٢] المرجع السابق ص ١٧٥
[٣] المرجع السابق ص ٢٢٢

لذلك نجده يرفض ذلك الواقع بكل تفاصيله :

لا تقل لي: سبقتني ولمـــــــاذا لا أوالي وراءك الإنطـــلاقا ؟ [١]

لم أسابقك في مجال التـــــدنّي والتلوّ ي فكيف أرضى اللحاقا ؟

أنا إن لم يكن قريني كريـــــما في مجال السّباق عفت السّباقا

لا تقل : ضاع في الوحول رفــاقي وأضاعوا الضمير والأخـــلاقا

لم أضيع أنا ضميري وخــلقي وكفاني أنّي خسرت الرّفـــاقا

لا تقل :كنت صاحبي فادن منّي لست أشري و لا أبيع نفـــاقا

لا تقل لي : أين التقينا ؟ ولا أيـ ن افترقنا فنحن لم نتــــــلاق ؟ [٢] - [٣]

لقد سخر البردّوني من هذا السباق المحموم نحو السقوط في الدنايا ، وترفع حتى عن سماع المبررات ، فكانت تلك الصرخات بلا تقل وكأنها رفض قاطع لكل ما يتعلق بهذا الوضع ، وسخرية لاذعة لكل ما يحيط به من متناقضات ، رفض جعل عنوانه أنه لا تلاقيعلى أرض الذّل ، والهوان ، فليس هناك مكان يجمعنا ، ولا زمان نلتقي فيه ، رفض جعله يصرخ بواقع بلاده المرير

أتدرين يا صنعاء ماذا الذي يجري تموتين في شعب يموت ولا يدري ..

تموتين .. لكن كل يوم وبــــعدما تموتين تستحين [٤] من موتك المــزري

ويمتصك الطّاعون لا تســـألينه إلى كم؟ فيستحلي المقام ويــستشري

تموتين ...لكن في ترقّب مــولد فتنسين أو ينساك ميعاده المــــغري [١]

---

[١] وردت هكذا في الديوان للضرورة الشعرية

[٢] تدوير البيت لي في الأصل ، كما حذف ألف الإطلاق .

[٣] المرجع السابق ص ٢٦٧

[٤] هكذا وردت في المرجع . والصواب تستحيين

لقد كرر البردّوني موتها ساخرا من طريقته المزرية ، التي يترفع بها عنه مثل ذلك الموت ، لأن مثلها لا يستحق الموت ، خاصة إذا كان موتها يحمل في طياته عزّ أناس لا يستحقون التضحية ، لرضوخهم وهوانهم ، خاصة وهو يرى أنهم لاهون ولا يدرون بموتهم . لأن من يحاول قتلهم يختبئ في كل مكان ، ويجئ على كل حال

غزاة لا أشـــــــاهدهم وسيف الغزو في صدري

فقد يأتون تبــــغا في سجائر لونها يغــــري

وفي صدقات وحشـيّ يؤنس وجهه الصّخري

وفي أهداب أنثـــى في مناديل الهوى القهري

وفي سروال أســــــتاذ وتحت عمامة المقري

وفي أقراص منع الحمـ ل في أنبوبة الــــحبر

وفي حرية الغـــــثيا ن في عبثيّة العــــــمر[2]

وفي عود احتلال الأمـ س في تشكيلة العصـري

وفي قنّـــــينة الوسكي وفي قارورة العطري [3]

لقد جاء حرف الجر (في) دلالة واضحة على التنوع الذي بحث عنه البردّوني في سياق تفتيشه عن الغزاة ، دلالة تدل على تخفيهم وعدم ظهورهم للعيان ، وتكراره يؤكد مسألتين حرصه الشديد على كشفهم ، وتفننهم في الاختفاء عن الباحث في كل مكان ، وبكل صورة ممكنة ، لذلك وجدناه يبحث عنهم حتى في سروال الأستاذ ،

[1] المرجع السابق ص ٦٠٣
[2] تدوير الأبيات ليس في الأصل
[3] المرجع السابق ص ٦٨٠

وتحت عمامة المقري ، سخرية بحالة الخضوع ، والانقياد التي وصل إليها جميع أطياف الشعب ، مثقفهم قبل عاميهم . اشتباه جعل البردّوني في حيرة من سيره .

إلى أين ؟ هذا بذاك اشتـــــــبه ومن أين يا آخر التـجربه ؟

إلى أين ؟ أضنى الرصيف المسيـ ـر وأتعبت الراكب المركبه

وعن كل وجه ينوب القنـــــــا ع وترنو المرايا كمستغربه

إلى أين ، من أين ؟ يدني المـــتا ه بعيدا ويستعبد المــقربه[1] [2]

تكرار البردّوني لظرف المكان ، مع حرف الجر يدل على حيرته ، وعدم مقدرته على تصور الأمور بشكل جيد ، هذه الحيرة التي جعلته يصل في معاناته لطريق مسدود تتشابه فيه النهايات ، وتشتبه فيه الوجوه والأقنعة دلالة على صعوبة ، وتأزم الموقف بالنسبة للبردّوني .

هنا تستقبح الأحـــــلى هنا تستجمل الأشـــنع

هنا ترقى إلى الأدنـــــى هنا تهوي إلى الأرفـع

هنا تمحو الذي تبـــــني هنا تبني الذي تقـــلع

هنا تدري متى تنهـــــي هنا تنسى متى تـشرع

فترضى كلّ ما استبشعـ ـت خوف تقبّل الأبشـع [3]

هنا وليس في مكان غيره تأكيدا على هذه الميزة اليمنية ، التي لا توجد في غير هذا المكان ، سخرية من وضع بلاده المتفرد عن بقية الأمم ، فكل ما فيه يدعو للحيرة ،

---

[1] تدوير الأبيات ليس في الأصل
[2] المرجع السابق ص ٨٢١
[3] المرجع السابق ص ٩٣٢

والسؤال ، لماذا هنا فقط ، لذلك جاءت (هنا) كسؤال عريض يجتر من داخله كل لغات الأنين ، هل هذه ميزة تفردنا بها عن بقية الشعوب ، لذلك نجد البردّوني يركب صهوة جواد ذكرياته ليعود لماضيه علّه يجد ما يبحث عنه من حقائق في رحلته مع أولاد عرفجة الغبشي .

قيل عنهم :تمرّدوا وأطـــاعوا وكأمثالهم أضاعوا وضـــــــــــاعوا

قيل : جاءوا من صخرتين بواد قيل شبّوا كما تطول التّــــــــــــلاع

قيل :هم أُخوة ، وقيل رفـــاق قيل : هم جيرة غذاهم رضــــــــاع

ذو أصول أعلى المزايا لديــهم سل سيف أحدّ منه الـــــــــــذراع

قيل : كانوا إذا أجالوا ســـيوفا في ربى (صعدة) أضاءت (رداع)

وإذا أولموا بـ (صعفان)ليلا كان للّيل في الخليـــــــــــج التماع

قيل : كانوا كواكبا فاستـــحالوا واديا للشموس فيه انـــــــــزراع [1]

تلك الرحلة التي جعلته يعيش بعض أمانيه ، أمانيه التي رحلت من واقعه المعاش ، لتسكن في أعماق ذكرياته .

ومع كل ذلك الأسى المعاش لينسى البردّوني ، وهو الحالم بالمستقبل الواعد، المستقبل الذي يبني فيه وطنه ، المستقبل الذي يرى فيه شعبه وهو يحقق كل ما يصبو إليه من عزّ ومجد ، الوطن الذي يريد أن يكون حاضن أبنائه، لا ذلك الذي ينفرهم من العيش على أرضه ، والتمتع بسمائه .

من ساحة الأصـــــنام والأوثان من مسرح الطاغوت والطّـغـيان

[1] المرجع السابق ص ١٠٦٨

من غابة الوحشية الرّعنا ومــن دنيا القتال و موطن الأضــغان

من عالم الشدّر المسلّح حـيث لا حكم لغير مهنّد وســـــــنان

بزغت تباشير السعادة والهدى بيضا كطهر الحبّ في الوجدان [١]

يتحدث البردّوني عن زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقارن أحوال المجتمع في ذلك الوقت بوقته الحالي ، فيجد أن سوداوية ذلك الزمان لم تمنع من بزوغ فجر حقبة ملأت الدنيا نوراً ، وعدلا ، فالله قادر مع ما يحيط بالأمة من تأزم أن يخرج من قلبها النور مرّة أخرى. لينطلق البردّوني حاكيا قصة حب من نوع خاص .

أنت يا كلّ من أحـــب وأهوى في حنيني شعر وفي الصمت نجوى

أنت في كـــل دقة من فؤادي نغمات من خمرة الحبّ نشــــوى

وغناء مدلّه ينشر الحـــــب صداه وفي فم الصـــمت يُطوى

في ضلوعي إليك شوق وقلب شاعر يعزف الصـــــبابات شدوا [٢]

كرر (أنت) دلالة على رسوخ موقعها ، وتلذذا منه بذكرها في كل جملة يبوح بها، وعبّر بلفظ الضمير (أنت) تأكيدا منه بمعرفتها ، فهي التي لا تخفى عليه في كل حال . لقد وظف البردّوني التكرار لما يريد أن يقوله خارج إطار محدودية اللفظ ، فجعل منه ساحة للتعبير عن كل ما يجول في خلده من معانٍ .

[١] المرجع السابق ص ١٩٩
[٢] المرجع السابق ص ١٢٦

٤ ـ الحوار .

أصل كلمة الحوار هو : (الحاء ، والواو ، والراء) ، وقد بين ابن فارس أن للحاء والواو والراء ثلاثة أصول :اللون ،و الرجوع ، وأن يدور الشيء دوراً [١] ، وتعود أصل كلمة الحوار إلى الحَوْ ر وهو الرجوع عن الشيء ،

يقال : (حار بعدما كار) ، والحور النقصان بعد الزيادة ، لأنه رجوع من حال إلى حال . ، والتحاور : التجاوب ، تقول : كلمته فما حار جوابا ، أي ما رد جوابا ، وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام والمحاورة: مراجعة المنطق،والكلام في المخاطبة. ، فحار حَوْ راً وحُئُرا : رجع . وفي التنزيل العزيز {إنّه ظن أن لن يحور } [٢] ، أي لن يرجع [٣] ، ويقال : حار إليه ، والشيء : نقص . ويقال حار بعدما كار : نقص بعدما زاد ، وحاوره محاورة وحِوارا : جاوبه ، وجادله[٤] وفي التنزيل العزيز { قال له صاحبه وهو يحاوره }[٥] وقد جاء معنى الحوار لغة : المجاوبة والمجادلة والمراجعة [٦]. مما سبق يتضح أن مادة الحوار تدور في معانيها حول الرجوع والتردد . فإذا انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي ، الحوار: هو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر ، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصّب[٧] أو هو تناول الحديث بين

---

[١] انظر معجم المقاييس في اللغة ، كتاب الحاء ، ج ٢ ص ٢٨٧
[٢] سورة الانشقاق اية ١٤
[٣] فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ط ١ بيروت _ المكتبة العصرية ، ١٤١٨ هـ ج ٥ ص ٥١٥
[٤] المعجم الوسيط ط٤ ص ٢٠٥
[٥] سورة الكهف اية ٣٧
[٦] الحوار أدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ـ يحيى زمزمي ط٢ عمان _ دار المعالي _ ١٤٢٢هـ ـ ص ٣٢
[٧] ، في أصول الحوار ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ، الندوة العالمية ، ١٤١٥ هـ ص ١١

طرفين، أو أكثر عن طريق السؤال والجواب ، بشرط وحدة الموضوع ، أو الهدف ، فيتبادلان النقاش حول أمر معين ، وقد يصلان إلى نتيجة ، وقد لا يقنع أحدهما الآخر، ولكن السامع يأخذ العبرة ويكوّن لنفسه موقفا [١]، أو أدب تجاذب الحديث بشكل عام [٢] .

دار الحوار فيما سبق من تعريفات حول تبادل الحديث بين طرفين ، يسعى كل منهما إلى بيان موقف معين ، من قضية معينة ، دون إلزام الطرف الآخر بالرأي ، أو تبنّيه لنفس الفكرة ، وقد عرف الشعر العربي أسلوب الحوار داخل النص الشعري ، وفي موروثنا الشعري أنموذجات من قصائد تقوم على الحوار أصلا ، سواء أكان الحوار حوارا خارجيا أم حوارا داخليا . [٣]وعندما يجول البحث في فكر البردّوني يجده يسير بنا في حوارياته ، التي بثّها في نتاجه الأدبي و يبحر بنا في عالمه الفكري ، الذي أراد أن يقوله لنا لكن عن طريق الحوار ، وتبادل النقاشات بينه وبين الطرف الآخر ، ولا يهمنا في مسيرتنا أن يكون الآخر هو المقابل ، أو الضد ، أو يكون البردّوني نفسه ، وإنما كيف استطاع البردّوني بألته الساخرة أنيطوّع هذا الأسلوب ، ليكوّن نوعاً من مراكبه التي يبحر بها في سخريته من الواقع المعاش ، فالطريق الذي يسلكه محير ، كحيرة وطنه الذي ليس فيه طريق واضح .

صاحبي غامت حوالينا النواحي أيّ مغدى تبتغي أيّ مـــــــراح

قف بنا حتى يمرّ السيل مـــــن دربك المحفوف بالشّر الصـــّراح

أين تمضي ؟ والقضا مرتقـب ومتاح والرجا غير متــــــاح

---

[١] أصول التربية الاسلامية وأساليبها ، عبد الرحمن النحلاوي ط ٢ ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٠٦
[٢] مجلة المجتمع ، العدد ١٦٣٤ ، كيف نرسخ ادب الحوار والنقد ؟ ، الدكتور أحمد شحروري ، ص ٤٨
[٣] الصورة الشعرية عند البردوني ص ٢٤٠

والدّجى الأعمى يغطي دربــنا   برؤى الموتى وأشلاء الأضاحي

أين تمضـــــي ؟وإلى أين بنا   جدّت الظلما فــدع حمق المزاح

أظلم الدرب حوالينا فـــــقف   ريثما تبدو تباشير الصـــــباح [1]

هذه الحوارية التي نسجها البردّوني تظهر بوضوح تلك المشاعر المضطربة التي كان يعيشها الناس ، فلا يعرف الساري من أين يبدأ ؟ ولا أين ينتهي ؟ وكل الأمور تؤدي إلى المجهول ، فكل مفرداته توجه الناس إلى الضياع فالدجى أعمى والظلمة متجددة والدرب محفوف بالمخاطر الواضحة للعيان .ثم يعود البردّوني ليزرع نبتة الأمل في نفوس الناس :

وهنا نادى على الدرب فتى   صوته بين اقتـــــــراب وانتزاح

يحمل المصباح في قبضته   وينادي الركب من خلف الجــراح [2]

لقد جعل البردّوني هذا الفتى علامة على النجاة ، فهي نجاة جديدة كمولود جديد يخرج من رحم هذه الأرض ، لكنه مولود قوى يستطيع بعد إرادة الله أن يشعل نور الهداية ، والخلاص لقومه . لكن هذا الأمل الذي زرعه سرعان ما طفأت جذوته ، وتلاشى نوره بين هبوب رياح المصائب العاتية ، فلم يستطع فتاهم أن يقارع الرياح العاتية .

فتلفّــــــــــــتنا إليه فانطوى   صوته بين الروابي والبـــطاح

واحتوى الصمت النّدا واضطربت   حول مصباح الفتى هوج الرياح [3]

لقد عادت أحزان البردّوني لسابق عهدها ، وكأن الزمان حكم عليه بالمعاناة الأبدية .

[1] ديوان البردّوني ص ١٧٨
[2] المرجع السابق ص ١٧٨
[3] المرجع السابق ص ١٧٩

ثم إنّ البردّوني يحول بعض الحوارات إلى دراما تكون أقرب في سردها إلى القصة المكتملة العناصر .

في هجعة الليل المخـيف الشاتي والجو يحلم بالصـــّباح الآتي

والريح كالمحموم تهذي والدجى في الأفق أشباح من الإنصات [١]

تستمرُّ هذه المقدمة لتوضيح الجو العام لهذه القصة،فكل ما في القرب يشعر بالخوف ، والقلق والترقب

في ذلك الليل المخيف مضى فتى قلق الثياب مروّ ع الخـطوات

يمشي وينظر خلفه وأمــــــامه نظر الجبان إلى المغير العاتي

ويرى الحتوف إذا تلـفّت أو رنا ويحس أصداءً بلا أصـــوات [٢]

بدأت قصة هذا الفتى مع الخوف الذي يسيطر على كل الأرجاء،ثم تتسارع الأحداث، فيقابل هذا المروّ ع عُصبة من قطاع الطرق .

وهنا تراءت للمروع عـصبة كالذعر شيطانيّة اللّمحات

شعث كأهل الكهف إلا أنّ في نظراتهم همجية الشهوات

وتقلّبت مقل العصابة في الفتى وكأنها تشويه بالنظرات [٣]

وتتطور الأحداث في صراع البقاء بين همجية الشهوة ، والتلذذ بالقوة ، مع شجاعة الحياة ، والتمسك بالبقاء .

والتاع فيها الشرّ فانهالت علــى ذاك الفتى بالضرب والطعنات

[١] المرجع السابق ص ٢٩٨

[٢] المرجع السابق ص ٢٩٨

[٣] المرجع السابق ص ٢٩٨

فاستل خنجره وكـــسر وحده وحشية الوثـــبات بالوثبات

وتلقّتت تلك العصابة حــولها فرأت بعين الوهم ظل سراة

وهناك لاذت بالفرار وأدبرت ملعونة الرّوحات والغدوات [١]

ليسقط ذلك الفتى وهو متأثر بجراحاته ولم يجد من يشفق عليه إلا أهل كوخ على جانب الطريق بعيد عن القصور المترفة معنويا ، بينما حسيا هو لا يبعد إلا ميلا .

وعلى يمين الدّرب كوخ تلــتقي في صدره النكبات بالنكبات

بين القصور وبينه مــــــيل وما أدنى المكان وأبعد الرحمات

يشكو إلى جيرانه فيـــــــصمهم عنه ضجيج القصف واللّذات

كوخ إذا خطرت به ريح الدّجى أوما إلى السّكان بالرّعشات [٢]

تجتمع معاناة أهل الكوخ ، ومعاناة الفتى الجريح على أرضية الفقر ، والعوز، فكان التداوي بالدعوات التي أرجعت بعد لطف الله الحياة إلى الفتى المثخن بالجراحات.

فدنت فتاة الكوخ تمسح وجــــهه وتبلسم الأجراح بالدّعـــوات

وتبلّ من دمه يديــــــــــها إنها تشتمّ فيه أعبق النفــــــحات

وترى به ما ليس تدري هل ترى سرّ القضا ؟ أم آية الآيـــات

فإذا الجراح تنام فيه ويشـــــــتفي ويردّ عمرا كان وشك فوات [٣]

لتختتم القصة بذلك المشهد الفرائحي الذي أعاد الحياة ليس للفتى فقط ، وإنما لكل الأرض المظلومة .

---

[١] المرجع السابق ص ٣٠٠
[٢] المرجع السابق ص ٣٠١
[٣] المرجع السابق ص ٣٠٢

فضح الصّباح المجرمين فأصبحوا أخـــــــــبار جرم في فم اللّعنات

وتعالت الأكواخ تنظر أهـــــلها يضعون ((غار النصر)) في الهامات

لمس الربيع قلوبهم وحـــــقولهم فاخضوضرت بالبـــــشر والثمرات[١]

انتهت هذه المأساة الدرامية التي صاغها البردّوني لبيان تلك الحالة الفوضوية التي يعيشها الشعب ، والصراعات التي يكتوي بنارها الضعفاء، لكنه رغم ذلك يضيء لنا كعادته أمل المستقبل ، وينادي زهور الربيع المقبلة لتملأ المكان بعبقها ، ليستمرّ هو في سرده لحال أمته في حواراته ، التي تبحث عن مرسى :

قال لي : هل تحس حولك رعبا وعجاجا كالنار طار وهـــبّا ؟

فكأنّ النّجوم شهقات جرحــــى جمدت في محاجر الأفق تعبى

قلت إن الطريق شبّ عِراكا آدميّا فأجْ يَفِ الغَنْم[٢] ... شـبّا

فكأني أشتم في كل شــــــبر ميتة تستثير كلبا ... وكـــــلبا

أقوياء تفني الضّعاف وتدعو خسّة الغالبين نصرا وكـــسبا [٣]

هذه الحوارية الساخرة من واقع الحياة المعاش يصل فيها البردّوني إلى أن الإنسان يتمنى فيها الموت فيكون أعزّ مطلوب .

قلت : ليت الممات ينهي خـطانا قال :ما كلّ من دعا الموت لبّى

يا رفيقي : الموت شر ... وأدهى منه ...أنّا نريـــــده وهو يأبى [٤]

[١] المرجع السابق ص ٣٠٥
[٢] أحقر الغنائم .
[٣] المرجع السابق ص ٣٠٦
[٤] المرجع السابق ص ٣٠٨

لقد دار الحوار بينه وبين رفيقه بحثا عن مصدر نجاة من حياة يملؤها اليأس ، فلم يجدا سبيلا للخلاص ، حتى وهما يتمنيان الموت تصطدم أمنياتهما بالخذلان ، فلا يجدان بدا في أن يصارعا هذه الحياة بعزيمة وإصرار ، أملا في أن يتغير في مستقبل الأيام حالهما .

لم يكتف البردّوني في حوارياته بالأحياء ، بل طـَفِـقِيبثّ شكواه ، وألمه للموروث الذي جعله رمزاللعزّة ، والتباهي ، فهاهو ذا يحاور أبا تمام ، ويشكو ما آلت إليه الأمة العربية من ذلّ ، ويتذكر تلك العزّة التي حركت أبا تمام ليصدح ، ويفتخر بفتح عمورية .

ماذا جرى .. يا أبا تمام تســألني ؟ عفوا ... ولا تسأل .. وما الســبب

يدمى السؤال حياء حين نــــسأله كيف احتفتبالعدى يافا أو النّــقب

من ذا يلبي ؟ أما إصرار معتصم كلا وأخزى من الأفشين ما صُلبوا

أليوم عادت علوج الرّوم فاتــحة وموطن العرب المسلوب والسّــلب

ماذا فعلنا ؟ غضبنا كالرّجال ولم نصدق ..وقد صدق التّنجيم والكتب [1]

هذا الحوار الذي استظهر فيهلبردّوني عمق التراث ، وأيام العزّة ليعري ذلّ اليوم ، ويكشف عن أسباب الخنوع ، والخضوع الذي اعترى الأمة . إلا أنه مع كل ما اكتسى حواريته من ألم ، وظلمة ، إلا أنه يرجع كعادته ليضيء لأمته شمعة أمل .

أ لا ترى يا أبا تمّام بارقنا إن السماء ترجّى حين تحتجب [2]

[1] المرجع السابق ص ٦٢٥
[2] المرجع السابق ص ٦٢٩

تلك الشمعة التي تعاني من جور الحاكم المستبد ، ذلك الحاكم الذي حاول البردّوني أن يعري جهله في مشاهد مأساة حارس الملك .

سيّدي : هذي الروابي المنتنه لم تعد كالأمس ، كسلى مذعنه

(نقم) يهجس يعلى رأسـه (صبر)يهذي يحدّ الألـسنه

(يسلح) يومي يرى ميـسرة يرتئي (عيبان) يرنو مـيمنه

لذرى (بعدان) ألفا مقلـة رفعت أنفا كاعلى مـئذنه

اقتلوهم واسجنـوا آباءهم واقتلوهم بعد تكبـيل سنه

أمركم لكن !ولـكن مثلهم سيّدي هذي أسـامي أمكنه

هم شياطين أنا أعـرفهم حين أسطو يدعون المسكنه [١]

إن البردّوني من خلال هذه الحوارية العقيمة التي دارت بين الحارس ، والسيد ، يحاول أن يصف لنا واقع المأساة ، ومن ثمّ يضع اليد على أول الحلول ، فلن نستطيع الترقي والرجوع لزمن للعزّة التي يتطلع البردّوني إليه، ونحن بهذا المستوى الفكري العقيم ، ذلك الفكر الذي يرزح تحت وطأة المؤامرة التي كبلت كل الشعب ، وجعلته سندباداً متهما في مقعد التحقيق .

كما شئت فتّش ... أين أخفي حقائبي أتسألني من أنت ؟ .. اعرف واجبي

أجب لا تحاول عمرك الإسم كـاملا ثلاثون تقريبا ... مثنى الشـواجبي [٢]

هذه الحوار يكشف في أبعاده عن تلك الأزمة التي يعيشها الحاكم ، فكل الشعب هم خونة يريدون أن يغيّروا النظام ، لذلك وجدنا شخصية المحقق المتوترة التي تبحث في

---

[١] المرجع السابق ص ٧٤١
[٢] المرجع السابق ص ٧٦٥

كل جوانب المتهم عن غلطة يستطيع بها أن يثبت شكوكه ، ليقابله ذلك المواطن الذي لم يجد في ثقته بالبراءة أملاً في النجاة ، لذلك وجدناه غير مبال بكل الأمور ، قادته هذه اللامبالاة إلى السخرية من ذلك المحقق ، وأسئلته .

لم يكتف البردّوني ببشرية الحوار ، فأخذ يحاور حتى الجمادات ، عله يجد فيها ما يغنيه عن تسلط الإنسان وجبروته .

هذا الجدار يقول ... لي ويعي همسي ويصغي للرياح مـعي
يرنو إلى كصمت ممـــلكة... للطـّيف تهمس : مات مجتمعي
ويشمّ مأساةًتقطّـــــــــعني وأشم في مأساته قطــــــــعي
يحكي بلا صوت وأســـــمعه أهذي وأصمت وهو مستمـعي
يبكي كما أبكي يســــــاهرني أغفو رؤى عينيه مضطجعي
من أين جئنا يا جـــــدار ؟ أنا منك انبثقت وجئت من وجعي
أورقت في نجواك جمر هوى وهجست كالميعاد في ولـــعي
وهنا التقينا كنت مصــــطنعا وأنا كلا شيء كمصــــطنعي
مسعاك لا صحو ولا مــــــطر والعقم مصطافي ومـــــرتبعي
أمضي ... خيول الأمس تسبقني أعيا الوصول وضاع مرتجعي
أتخاف مثلي يا جـــــدار ؟ ولا تدري وأبدو لا أعي فــــزعي
كالناس أنت ؟ ولا يرى أحــــد تـَ ◌َ ◌َ ◌َ ◌َ ◌َ وْقِي إلى ريّي إلى شبــــــعي [1]

[1] المرجع السابق ص ٨٨٥ ـ ٨٨٦

لقد حاول البردّوني في هذا الحوار أن يكسر القيود ، ويغير من طبيعة الأشياء ، وكأنه يصرخ في وجه الدنيا ، يريد أن يحطم قيد وتيرة الذل الذي يعيشه حتى ولو كان عن طريق المعجزة .

هيا يا جدران الغرفه قولي شيئا .. خبرا طرفه

تاريخا منسيا حــلما ميعادا ذكرى عن صدفه

أشعارا سجعا فلسفة بغبار الدّهشة ملتـــقّه

أنغاما تعلو قامــتها وتحل ظفائرها اللّهـــفه [١]

لقد حاول البردّوني أن يخرج هذا الصامت على معترك الحياة ليخوض معه تجاربها ، ويستمع معه لأناتها ، ويعيش معه مواجعها ، ليجيء الجواب على غير ما تمنى .

في قلبي ألســـــــــنة الدّنيا لكن لفمي عنـــــها عقّه

الصمت حوار محتــــــــمل والهجس أدلّ مـــــن الزّقّه

إطلاق الأحرف حرفتـــــكم لِخترتُ الصمت أنا حرفه

أو قل ما اخترت ولا اخترتم طبعتنا العـــــادة والألْفه [٢]

لقد خرج الجدار عن طبيعته ، فهو يتحدث يحاور ، يناقش يعطي رأيا ويقبل رأياً وكأنه انسلخ من كونه جمادا ، ليتقمص دورا بشريا ،ومع ذلك نجد البردّوني لم يكتف بحوارياته للجمادات ، بل جعلها تفكر نيابة عن البشر ، وتتجول ناظرة بعينها الثاقبة في أحوالهم ، فهاهو ذا يروي حواريته مع ذلك الرصيف المتجوّل .

كل حكى ... أحكي أتدري يا هنا أنّي كتاب جئـــت قبل مؤلفي ؟

[١] المرجع السابق ص ٩٩٩
[٢] المرجع السابق ص ١١٠١

أيقول من ألقى رصيـــــف عابر أم قرمطيّ في قميص مطرّفي ؟

ماذا يصنّفني الملفّ بطـــــاقتي حجر بلا لون كوجه مصـــــنّفي

أيقول ما اسمي شارع ؟ أيظنّني باب حصان نار قلبي مـــــعلفي ؟

لا درب أنكرني لأنّي مثل من يمشون فوقي من يحسّ تصرفي ؟

قد يبحثون ولا يرون تحـرّكي قد ينظرون ولا يـــــرون توقّفي [1]

لقد سار هذا الرصيف ، وتجول في مدينته ، لكنه وجد أن من يسيرون عليه لا يستحقون هذه الميزة ، فهو ،إن كان جمادا لكنّه يملك من العقل ، وحسن التصرف ، والمشاعر ما يجعله أولى بالحياة من هؤلاء السائرين .

فهاهو ذا يكمل جولته في مدينته .

حسنا أواصل جولتي هذا الذي يبدو يصدّ عن الخطير المختفي

ماذا يلـــــــوّح كانتفاخ ولادة ينوي البزوغ وبالـتورّم يكتفي ؟

ماذا يرى ؟ حَبِلَ الرجال نيابةً عنهنّ ... هيّا يا صحافة زخرفي

ولأنهم حبلوا سفاحا أنجــــبوا عَدما فهيّا شوربـــــــيه وتنّفي

وهبيه ألقاب البطولة لـن تريْ إسراف كفّيه إذا لم تـــــسرفي

قولي لأروى والرّباب تزوّجا بعضيكما ذهب الزمان اليوسفي [2]

أما حواريات البردّوني في عالم الحشرات فاتت أكثر سخرية عندما أعلنت الحشرات اجتماعا طارئا ، يخرج من خلاله البردّوني بتلك الحواريّة الساخرة، التي أسقطها على أحوال الأمة بشكل عام .

---

[1] المرجع السابق ص ٨٧٩

[2] المرجع السابق ص ٨٨٠

أعلنت سلطانة القمل اجتماعا رؤساء البق لبّوها سراعا

وإليها أقبل الأقطـــــاب من ممملكات السّلّ مثنى ورباعا [1]

هذه الحواريّة الساخرة من حال الأمة وما وصلت إليه من تدن ، جعل البردّوني يقيم أنموذجا ساخرا للاجتماعات غير المفيدة ، وكأنها اجتماعات تلك الحشرات ، التي لا يصل المجتمعون فيها إلى نتيجة مفيدة ، وتختتم بالحفل .

وأقاموابعد هـــــــــذا حفلة أنفدوا فيها دم اللّيل اجتـراعا

وأقرّوا : أن يسمّوا من نأى عن وصاياهم يعوقا أو سواعا

وبإعلان البيان اقتنـــــــعوا غير أنّ الصّمت لم يبد اقتناعا

وبهذا اختتموا أعمـــــــالهم وابتدت سلطانة القمل الوداعا [2]

إن هذه السخرية اللاذعة التي ساقها البردّوني في حنايا هذا الحوار على لسان الحشرات فيه ضجر كبير من أحوال الأمة ، وما وصلت إليه من ضعف ، وهوان .

لقد سخر البردّوني من هذه الحياة ، فجعل كل الموجودات تذمها ، بل نجده يرتحل في حوارياته ، وسخريته من الواقع إلى تلك الجدلية البيزنطية بين القتل والموت ، تلك الجدلية التي توحي بأن الموت غير القتل ، فالموت عند البردّوني قد يكون مع الحياة ، فواقعه الذي يعيشه هو موت لكن الناس لا يشعرون به ، أما القتل عند البردّوني فهو نهاية الحياة .

أمسيت لــــــــــــغوا يا ردى والقتل كالمقتول ســاهي

من ذا تميت وكلّـــــــــــــهم ماتوا وأنت هناك لاهي ؟

---

[1] المرجع السابق ص ١١٤٧

[2] المرجع السابق ص١١٥٢ ، ١١٥٣

سبقتك أمركة المـــــــــذابح أيها الشيخ الرّفـــــــاهي

أليوم لـــــــــــــلشدّيك الأوا مر للمُدى كلّ النّـــواهي

أصبحت يا موت احتيـــــاطا مثل أبطال المـــــــقاهي [١]

لقد جعل البردّوني من الحركة داخل النص مركزاً لحوارياته التي أخرجت لنا دراما متكاملة الأعضاء ، فاستعان البردّوني بها دون احتواء الأطر الكاملة للحركة الدراميّة ، ففي غنى الشخوص ،وتنامي تطورها، واحتدام صراعها ، دليل على قدرة الشاعر الكلاسيكي على بناء دراما متكاملة ، حيث استطاع أن يستوعب من حركة الشعر الحديث أحد أهم أدواتها ، الحركة والحدث فمن خلالهما خلع على الطبيعة ألوان الحركة ورسم بها الأشياء والجمادات فتحقق له شيء من النبض الدرامي ينبع من الارتقاء بالأدوات التي بدأ يستعيرها من تجاربه ، وقراءاته ، ومن قدرته على التعامل مع الجديد . [٢]

---

[١] المرجع السابق ص ٩٨٧

[٢] الدائرة والخروج ، محمود رحومة كلية الدراسات العربية جامعة المنيا ، مصر ١٩٩١ م ص ٧٦ بتصرف

٥ ـ المفارقة :

يرجع المعنى اللغوي للمفارقة لمادة فرق فنقول:فارق مفارقة وفِراقا : باعده . ويقال : فارق فلانا من حسابه على كذا وكذا : قطع الأمر بينه وبينه على أمر واقع عليه اتفاقهما . افترق القوم : فارق بعضهم بعضا . انفرق الشيء :افترق و انشقّ ، ويقال: انفرق الصّبح : انفلق . تفارق القوم : فارق بعضهم بعضا .تفرّق الشيء تفرّقا ، وتفِرّاقا :تبدّد ، والرجلان : ذهب كلّ منهما في طريق .

التّفاريق : تفاريق الشيء : أجزاؤه المتفرقة .ويقال أخذ حقه بالتفاريق ، وضمّ تفاريق متاعه . الفِراق :الفُرْقة ، وأكثر ما تكون بالأبدان . [1]

من خلال ما سبق يتضح أن مادة فرق تدور في مرجعيتها على التباعد ، ومن هنا جاء مصطلح المفارقة فالمعنى المذكور يجانب المعنى المراد ، وبصورة أخرى فما يريد أن يصل إليه الكاتب هو معنى ليس المذكور ، وإنّما أمر بعيد عنه ، ويفارقه مفارقة شديدة .

فالمفارقة من حيث أصولها ، وبناؤها هي مفاعلة من فرق ، ونعني بذلك مظاهر التناقض والتضاد التي تنتظم ظواهر الوجود والحياة ، وأحداث المجتمع ، وسلوك الناس ومواقفهم ، حيث يباين وجه وجها أخر مباينة تكشف عن تضاد أو تناقض [2]

والمفارقة تقوم على إبراز التناقض بين وضعين متقابلين هما طرفاالمفارقة[3]، وتتبدى المفارقة في مظاهر شتى تتصل بالوجود والمجتمع والفرد،وتتمثل في أوجه التناقض ،

---

[1] المعجم الوسيط ص ٦٨٥

[2] المفارقة في شعر عدي بن زيد ، حسني عبد الجليل ، ط١ ، دار الوفاء لدنيا الطباعة ، الاسكندرية ص ١١

[3] بناء القصيدة العربية الحديثة ، علي العشري ، مكتبة الشباب ، ط١ ، ١٩٩٨ م ، ص ١٣٨

والتضارب ، والتنافر ، والتعارض، والاختلاف ، والتعاكس ، والتغاير ، والتباين ، والتجاوز، والتقابل بين طرفين : بين ما هو ظاهر ، وما هو باطن،أو بين ما يحدث ، وما يجب أن يحدث ، أو بين ما هو حق ، وما هو زائف،أو بين الجد، والهزل ، كما تتبدى المفارقة بين المنطق واللامنطق ، والمعقول واللامعقول ، فالبناء المفارقي يكشف عن التعارض بين أطراف قد تبدو متعارضة ، وعن اجتماع ثنائيات متضادة لا يجب أن تجتمع .[١] وتعرف المفارقة بأنها استراتيجية قول نقدي ساخر... ، وقد نقول : إن المفارقة هي استراتيجية الإحباط ، واللامبالاة ، وخيبة الأمل ، ولكنها – في الوقت نفسه – تنطوي على جانب إيجابي ، فقد تنظر إليها على أنها سلاح هجومي فعّال.وهذا السلاح هو الضحك . لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد ، والضغط الذي لابد أن ينفجر [٢]من خلال ما سبق سيحاول البحث في الكشف عن استخدام البردّوني لهذا الأسلوب في تمرده على الظلم ، وسخريته من واقع امته المعاش ، وضربه بيد من حديد على كل وضع مزيف يحتاج إلى تصحيح ، حياة تجتمع فيها الجراحات .

أبكي فتبتسم الجراح من البـــــكا فكأنها في كل جــــــــارحة فم

يا لابتسام الجــرح كم أبكي وكم ينساب فوق شفاهه الحمراء دم

أبدا اسير على الجراح وأنتـــــهي حيث ابتدأت فأين مني المــختم [٣]

---

[١] المفارقة في شعر عدي بن زيد ص ١١

[٢] المفارقة في القص العربي المعاصر ، أسيا قاسم ، مجلة فصول مارس ١٩٨٢ م ص ١٤٣ـ١٤٤

[٣] ديوان البردّوني ص ١١٢

تلك الجراحات التي مزقت قلبه و جعلته يعيش مع هذه الحياة التي تفتخر بالذل والهوان .

ونهضت والدّنيا كــما   كانت تفاخر بالصَــغَار

وتهاوت الدّنيا الـــتي   خلق افتناني وابتكاري

فوددت لو ألقى كذاب ال   ليل صدقا في النــهار [١]

فبدل أن تفتخر الدّنيا بالعزّ والمعالي ، وجدها البردّوني تفتخر بالصَغَار ، والذل ، هذه الحياة التي يتمتع بالحياة فيها من كانت طباعه طباع الوحوش، والحيات .

وسألتها : ما الأرض ؟ قالت إنها   فلوات وأحاش وروض صِلال

إن كنت محتالا قطفت ثمــارها   أولا : فإنك فرصــة المحتال [٢]

هذه المفارقة الساخرة من الواقع المعاش ، فالحياة غابة لا مجال فيها للضعيف ، فإمّا أن تكون وحشا مفترسا وتأكل كل من يقابلك، وإما أنك ستكون فريسة سائغة للآكلين .

هذه النظرية التي تعب البردّوني في فك شفرات حلها ، كانت تؤرقه صباح مساء ، فلا يجد لها حلا .

ما كان أذكى مرشــدا   وأبر طلعــته الزّكــيه

كان ابتسامات الحــزيـ   ـن وفرحة النفس الشجيّه

عيناه من شغل الرشــا   دوكلّه من عبــقريّه

إن لم يكن في الأنبيــا   ء فروحه المــثلى نبيّه

قتلته في الوادي اللصو   ص فغاب كالشــمس البهيّه

[١] المرجع السابق ص ٢١٥
[٢] المرجع السابق ص ٢٢٤

كان ابن عمّي يزدريـــــه فلا يضـــــيق من الزّريّه

ومن ابن عمّي ؟ جـــاهل فظّ كليل الجـــــــــاهليّه

يرنو إلينا .. مثـــــــــلما يرنو العقور إلى الضحيّه

نعرى ، ويسبح في النقود وفي الثياب القيـــــصريّه

ونذوب من حُرق الظماء وعنده الكـــأس الرّويّه

والكرم في بســـــــــتانه يلد العــــــناقيد الجنيّه [١]

لقد صور البردّوني الواقع كما هو ، فالذكي المتوقد ، لا نصيب له في هذه الحياة ، والجاهل الفظّ المتغطرس يملك كل مقومات الحياة الكريمة ، إنها مفارقة عجيبة يعيشها البردّوني ويصورها لنا في هذا المشهد لأبناء العمومة ، ثم يزيد من سخريته اللاذعة عندما يجعل هذا الجاهل لا يكتفي بما لديه ، وإنما ينظر إليهما نظر الضحيّة التي يجب أن يستمتع بها أيضا ، وتكتمل فصول هذه المفارقة في طريقة موت الذكي نهبا من اللصوص فأي شيء سيجدونه عند هذا الفقير الذي لا يملك إلا ذكاءه ، بينما يعيش هذا الغني حياته بكل سلام ورغد عيش ، وكأنه يقول لنا يموت صاحب العقل من أجل عقله ، ويعيش الجاهل بجهله .

هذه الحياة التي حيرت البردّوني فجعلته لا يعرف من أين يبدأ ؟ ولا إلى أين يسير .

هل أنا من هنا ؟ وهل لي مـكان ؟ أنا من لا هنا ومن لا مـــــــــكان

كم إلى كم أمشـــي ودربي ظنون ومداه قاص عن الوهـــــــم دان ؟

كم على كم أسير في غـير درب من تراب دربي ظـــــــنون الأماني

[١] المرجع السابق ص ٢٣٤

وأعاني مرّ السؤال ويـــــــتلو ه سؤال أمرّ مما أعـــــــــــاني

هل هنا موطني ؟ واصغي : وهل لي موطن غـــــيره على الأرض ثاني [١]

هذه الحياة التي ملها البردّوني ، فأصبح لا يكترث كيف تأتي منيته ، لأن الحياة بوضعها الحالي ليس فيها ما يرغب على العيش .

يخوفني بالنّهب والقتـــــل ناقم عليّ وهل لي ما أخاف عليه ؟

إذا رام نهبي لم يـــجد ما يرومه وإن رام موتي فالمـصير إليه

إذا سلّ روحي سلّني من يد الشّقا وخلصني من شــــــره بيديه

وأطلقني من سجن عمري فقاتلي عدوّ مروءات الصديق لديه [٢]

لقد ضاق البردّوني بالحياة ، وبالمتسلطين فيها فأتت هذه الصرخات غير مبالية بكل الأحوال ، غير أنه بالغ في سخريته عندما جعل هذا العدو المتسلط يتصف بصفة الصديق المشفق ، الذي يحنّ على صديقه فيخرجه من ضائقته ، لكن البردّوني بالغ مبالغة غير مقبولة عندما جعل المصير إلى هذا المتسلط ، ونحن نؤمن أن المصير بيد الله سبحانه وتعالى .

هذا المصير لم يعانه الكبار فقط ، وإنما اشترك الصغار في الهروب من هذه الحياة .

كيف انتهى من قبل أن يبتدي هل تنطفي الروح ولـــم توقد ؟

وكيف انهى السّير من لم يرح في دربه المجهول أو يغتدي

وافى من الديجور يحـــبو إلى كهف السكون النازح الأسود

---

[١] **المرجع السابق ص ٢٥٠ (وجود خطأ في الديوان)**
[٢] **المرجع السابق ص ٣١٠**

ألقى به المهد إلى قـــــــبره لم يقترب منــــــه ولم يبعد [1]

هذه التساؤلات التي طرحها البردّوني تقود المتلقي إلى أن هذا الصغير خاف من خوض غمار معركة يعلم من البداية انه الخاسر فيها ، ففضل أن يتجنب المسير في غمراتها .

طفل كعصفور الرّوابي طوى ردا الصّبا من قبل أن يرتدي

أهلّ في بدء الصّبا فانـــطفا لم يهد حيرانا ولم يهـــــتد

ونام في حضن الهنامبــعدا عن الأعادي وعن الحُـــسّد

عن ضجّة الدنيا وأشـرارها وعن غبار العالم المـــــفسد

تدافع الطفل وأهْنـــا الكرى على سكون المرقد المـــفرد [2]

هذه المفارقة التي قادت الطفل إلى الهروب من الدنيا وشرورها إلى الموت وراحته ، هي المفارقة الساخرة من هذه الحياة المعاشة التي يرفضها حتى الأطفال ، فيرحلون عنها قبل أن يعيشوها ، بل يصل بهم الحال أن يروا أن في الموت الهناء ، وفي الحياة الشقاء . هذه الحياة التي أصبحت مرتعا لكل منافق ، ومقبرة لكل شريف .

والناس شرّ وأخيار وشـــرّهم منافق يـــتزيّا زيّ أخيار

وأضيع الناس شعب بات يحرسه لصّ تُســتّره أثواب أحبار

في ثغره لغة الحــــــاني بأمته وفي يديه لها سكـّين جزّار

حقد الشعوب براكين مســمّمة وقودها كلّ خوّان وغـــدّار

من كل محتقر للشّعب صورته رسم الخيانات أو تمثال أقذار

[1] المرجع السابق ص٣١١
[2] المرجع السابق ص ٣١٢، ٣١٣

وجثة شوّش التعطير جيـــــفتها كأنها مَيتة في ثوب عطـــّار [١]

هذه المفارقات هي التي جعلت هذه الأمة تسقط في وحل الذّل ، والهوان ، فمن يقودها يضلل الناس بغير ما يريد ، فوثوق الناس في هؤلاء من خلال ظواهرهم جعلهم يتحكمون في مصائرهم ، مع أنهم لا يستحقون العيش في هذه الحياة فهم جيف تنمقها رائحة الخداع التي يتظاهرون بها ، وتأتي المفارقة الختامية فَهُمْ وإن كانوا المسيطرين على الوضع إلا أنهم أموات تفوح منهم رائحة الموت . هذا الزيف الذي جعلهم يحارون في توجههم .

فهل خلفنا شاطئ يا ريـــــا ح أقدامنا مرفأ يا قلــــوع

وصلنا هنا لا نطيق المُضيّ أماما ولا نستطيع الرّجوع

فلم يبق فينا لمــــاض هوى ولم يبق فــــينا لآت نزوع [٢]

هذه الحيرة تتعاظم ، وتكبر مأساتها لأنها تشمل الوطن كله.

بلادي في ديار الغير أو في دارها لهفى

وحتى في أراضـــيها تقاسي غربة المنفى [٣]

هذه الغربة التي سخر منها البردّوني ، لأنها غربة غريبة ، غربة يعيشها الإنسان داخل وطنه ، لأن وطنه أصبح غريبا عنه . هذه البلاد التي لم تكتف بالغربة ، وإنما أصبحت في المنفى .

لأن بلادي الحــــبيبه في مرتباها غريــــبه

---

[١] المرجع السابق ص ٣٣٥

[٢] المرجع السابق ص ٥٣٧

[٣] المرجع السابق ص ٥٨٣

لأنها وهي مـــــلأى بالخصب غير خصيبه

لأنها وهي حُبــــلى بالرّي عطشى جــديبه

جاعت ومدّت يديـها إلى الأكف المــــريبه

ثمّ ارتمت كعـــجوز من قبل بدء الشــّبيبه

تنسى المصير ويأتي مصيرها في حـــقيبه

لأن دار أبيـــــها لها مناف رهـــــيبه [1]

لذلك لا نعجب من أن البردّوني أصبح ، يعيش تلك المفارقات واقعا يجده في كل نبضة حياة يعيشها .

هنا أرقّم الصّـــدى وأنمحي كالخربشه

وكالصـــّلاة أرتقي وأرتمي كالدروشه

أهمي ندىً وأرتـخي كالتّربة المرشـّشه

سحابة تزرعنــــي تفاحة ومشـــمشه

نعشاً تجرّه الحصى إلى الوعود المنعشه [2]

لا شك أن كل شيء في هذا الوطن أصبح مجموعة من المتناقضات المضحكات ، فليس هناك شيء من المنطقية في كل شيء .

ألوقت لا يمضي ولا يأتي خوت أرجله

أقدامه رؤوســـــه رؤوسه أســــفله

أمامـــه وراءه ... آخــــــره أوله

[1] المرجع السابق ص ٥٨٩

[2] المرجع السابق ص٦٥٣

لا ينتهي لــــــغاية لأن لا بدء لــــــه

ماذا اقول يا هنــا ؟ وماالّذي أعمله ؟

ماذا ؟ ومثلي ميّت هذا الّذي أســــأله [١]

إنها كما وصفها البردّوني وجه الوجوه .. المقلوبة [٢] ، ذلك الوجه الذي لا تجده في مكانه أبدا .

الرقم العاشر كالثّــــــاني الواحد ألف ألفــــــان

وسوى المـــعدود كمعدود وسوى الآني مثل الآني

الألف الصـــــفر بلا فرق سيّان الأعــــلى والدّاني

لفوق سقوط صـــــخريّ التحت سقوط إنســــاني[٣]

نفس النّوع الأعلى الأدنى وجه المُفنى ظهر الفاني

سيّان القــــاتل والرّاثي سيّان الشامت والحــاني [٤]

لقد سخر البردّوني من كل ما حوله ، فكل الأشياء ليس بينها فرق في نظر البردّوني ، لأنها توصل لغاية واحدة ، غاية يبحث فيها القوي عن زيادة قوته ، ويدفع فيها الفقير بقية حياته .

وتهنا وحكامنا في الـــمتاه سباع على خــــطونا حوّم

يعيثون فينا كجيش المغول وأدنى إذا لوّح المـــــغنم

فهم يقتنون ألوف الألوف ويعطيهم الرشوة المـــعدم

[١] المرجع السابق ص ٨٠٤
[٢] عنوان قصيدة من ديوانه ص ٨٣٠
[٣] ألفوق ، ألتّحت ، هكذا وردت في الأصل ، والصواب : الفوق التّحت .
[٤] المرجع السابق ص ٨٣٠

ويبنون دورا بأنقاض ما أبادوا من الشعب أو هدّموا [١]

لقد جر البردّوني مفارقات عجيبة فالحاكم من المفترض أن يبحث عن راحة أمته ، لكن الحاكم عند البردّوني هو الذي يفترس الأمة ، فهم يقتنون الأموال ومع ذلك يبحثون عن الرشوة في مفارقة عجيبة ، فبدل أن يبحث ذلك المعدم عنها ، يقدمها وهو صاغر لذلك الحاكم الذي يأكل كل ما وقعت عليه يداه ، ذلك الحاكم الذي يبني مملكته من أجساد شعبه ، بدل أن يبني لهم حياة كريمة ، لقد وجد البردّوني كل التناقضات تنبع من نهر الحاكم

وقادها زعماء لا يــــــبرّرهم فعل وأقوالهم أقـــــــــوال أبرار

أشباه ناس وخيرات الــبلاد لهم يااللرّجال وشعب جائـــــع عاري

أشباه ناس دنانير الــــبلاد لهم ووزنهم لا يساوي ربع دينــــار

ولا يصونون عند الغدر أنفسهم فهل يصونون عهد الصّحب والجار

ترى شخوصهم رسـمّية وترى أطماعهم في الحمى أطــــماع تجّار

أكاد أسخر منهم ثم تضـــحكني دعواهم أنّهم أصـــــــــحاب أفكار [٢]

هذه المفارقات التي سردها البردّوني توضح بشكل جليّ نظرته للحاكم الذي بيده كل شيء ، لكنه مع ذلك يبحث عن كل شيء ، وكأنه خلق ليأخذ فقط ، وليس في قاموسه أيّ عطاء ، ففعلهم يخالف قولهم ، يتمتعون بأجمل اللباس ، وشعبهم جائع ، يشكو الفقر والعري ، يتاجرون بخيرات البلاد ، مع أنهم لا يستحقون أن يعيشوا فيها ، فلا يغرك منهم أن ترى أزياءهم الرّسميّة فهي أقنعة يخفون وراءها صورتهم الحقيقية ،

---

[١] المرجع السابق ص ٢٣٧

[٢] المرجع السابق ص ٣٣٤

صورة من يتاجر بكل شيء حتى بلاده إن ألزم الأمر . ثم يختم بتلك المفارقة المضحكة التي قادته للسخرية ، والضحك بادعائهم أنهم أصحاب فكر مستنير ، يقود الأمة إلى الرقي والتقدم .

لذلك لا نستغرب أن تنعكس الأمور ، فيصبح كل شيء بغير ما وضع له أصلا .

أيام كانت لـــلذبّاب على الجراحات الوصايا

أيام كان السلّ يأكلنا وليس لنــــــا درايه

وأبي يعلّمنا الضّلال ويســـــأل الله الهدايه

ويعيذنا بالمصطفى والصّالحين وكـــلّ آيه [1]

لقد أصبح الذّباب هو الوصيّ على الجراحات ن والمداوي للعِلات ، والأب يعلمهم الضلال ، وفي كلمة يعلمهم بعد عميق ، فهو يعرف كنه ما يسوقهم له ، لأنه عارف به لدرجة تعليمه ، و من ثمّ يرجع بعد ذلك التعليّم يدعو لهم بالهداية والرشاد . أمور تصارعت في تفكير البردّوني وهو يرى كل شيء من حوله يسير في غير مساره .

لماذا المقطف الدّاني بعـــيد عن يد العاني ؟

لماذا الزّهـــر آنيٌّ وليس الــشوك بالآني ؟

لماذا يقــدر الأعتى ويعيا المرهف الحاني ؟ [2]

تجيء إجابة البردّوني ممتلئة بالأسى لأنه يرى أن من يعذبه ، هم أولئك الذين زيفوا حياتهم ، وجعلوها مليئة بالخداع ، والنفاق ، فهم الذين أفسدوا عليه حياته بأعمالهم الشنيعة .

---

[1] المرجع السابق ص ٥٥٠

[2] المرجع السابق ص ١١٢١

إن كان من زوّروا أنليهم قبلا يعطون حبّا فما هنّ العداوات ؟ [1]

لقد تعب البردّوني من مناجاة هؤلاء الأحياء ، فتوجه نحو الأموات ، يناجيهم ، ويبثهم همومه ، في صورة مفارقة بين الحاضر والماضي .

ماذا جرى . يا أبا تمام تسألني ؟ عفوا سأروي .. ولا تسأل..وما السبب

يدمى السؤال حياء حين نســـأله كيف احتفت بالعـــدى حيفا أو النّقب

من ذا يلبي ؟ أما إصرار معتصم كلاّ وأخـــزى من ألأفشين ما صلبوا

لليوم عادت علوج الرّوم فاتــحة وموطـــن العرب المسلوب والسّلب

ماذا فعلنا ؟ غضبنا كالرّجال ولم نصدق .. وقد صـــدق التنجيم والكتب

فأطفئت شهب الميراج أنجــمنا وشمــــــسنا وتحدّت نارها الخطب

وقاتلت دوننا الأبواق صـــامدة أمّا الرّجـــال فماتوا ..ثمّ أو هربوا [2]

هذه المفارقات الساخرة من حال الأمة اليوم مقارنةبحالها في أيام عزّتها، مفارقات تكشف عن الوجه الحقيقي لما يحصل داخل الأمة من خور، وخنوع لم تتعود عليه أيام قيادتها للعالم ، خنوع لم يكن من الشعوب بقدر ما كان من الحكام .

حكامنا إن تصدوا للحمى اقتحموا وإن تصدّى له المستعمر انســحبوا

هم يفرشون لجيش الغزو أعينهم ويدّعون وثوبا قبل أن يثـــــــبوا

الحاكمون وواشنطن حـــكومتهم واللامعون .. وما شعوا ولا غربوا

لقاتلون نبوغ الشّعب ترضـــية للمعتدين وما أجـــــــدتهم القرب

[1] المرجع السابق ص ١٢٨٨
[2] المرجع السابق ص ٦٢٥

لهم شموخ المثنى ظاهرا ولـــهم هوى إلى بابكالخرُمِيّ ينتـــــسب [١]

لقد حاول البردّوني أن يبين سبب تلك المفارقات ن التي جعلت الأمّة تصل إلى هذه الدرجة من الهوان ، فبدأ بالحاكم الذي ألبسه حلة من المفارقات ، كانت بنظره هي السبب في وصول الأمة إلى ما وصلت إليه من ذلّ، وهوان ، فهم قوة على شعوبهم ، صغَار في أعين الأعداء ، تجار يبيعون أمتهم من أجل إرضاء أعدائهم ، والمفارقة العجيبة ، أنهم ومع كل ما يقدمونه من قرابين من أجل ترضية العدو ، إلا أن هذه القربات لا تجد القبول لدى الأعداء ، ويختم بتلك المفارقة بين ظاهرهم الذي يبدو كعزّة المثنى ، وباطنهم الذي ينتسب لبابك الخُرّمِيّ .

إذاً ترى يا أبا تمام هل كـــذبت أحسابنا ؟ أو تنـــاسى عرقه الذّهب ؟

عروبة ليوم أخرى لا ينمّ على وجودها اسم ولا لـــون ... ولا لقب [٢]

تسعون ألفا لعمـــوريّة اتّقدوا وللمنجّم قالوا :إنّنا الشّـــــــهب

واليوم تسعون مليونا وما بلغوا نضجا .. وقد عصر الزيتون والعنب [٣]

لقد جعل البردّوني المفارقة تقول ما يريد قوله ،فالمقارنة بين حال أمة تستمتع بالقول ، وتترك الفعل ، وبين أمة أدمنت الفعال ، وتركت الأقوال ، فارق بعيد جدا ، فانتفاض تسعين ألفا ، يقودهم الإيمان ،ويحثهم الإسلام ، وتحركهم النّخوة ، ليس كنوم تسعين مليونا ، يقودهم الهوان ، ويلعب بعواطفهم الذلّ ، فيترسخ في خلدهم حب الحياة الذي يثنيهم عن كل مفخوة، ويحرمهم من كل موقف شرف وعزّ. لقد حول البردّوني

[١] المرجع السابق ص ٦٢٦
[٢] وردت في الأصل (إسم) وهذا غير صحيح والصحيح اسم
[٣] المرجع السابق ص ٦٢٦

كعادته أن يبث في أمته الحياة ، وهذه المرّة كان سوطه الساخر المفارقة ، حاول البردّوني بمفارقاته أن يوقظ ذلك المارد النائم ، لعله في يوم من الأيام يرى هذه الأمة وقد عادت لسابق عزّها ، ومجدها .

تغنى البردّوني بمفارقاته على صدر جراحات الأمة ، عسى أن يجد بلسما شافيا يداوي به الجراحات ، قاد بمفارقاته أمته إلى طريق يأملفيه أن يوصلها إلى نبع عزّة صافٍ لا يكدره الخنوع والخضوع .

٦ ـ الصورة الساخرة (الكاريكاتور) .

في اللغة يأتي معنى الصورة من صَوَّر ، يُصور ، تَصويرا ، نقش صورة الأشياء ، أو الأشخاص على لوح، أو حائط ، أو نحوهما بالقلم أو بالفرجون، أو بآلة التصوير ، وتصوّر :تكونت له صورة ، وشكل ، وتصوّر الشيء : تخيله واستحضر صورته في ذهنه . الصورة :الشّكل ، والتمثال المجسّم ، وفي التنزيل {الّذي خلقك فسوّاك فعدلك *في أيّ صورة ما شاء ركّبك } [١] . وصورة المسألة ، أو الأمر : صفتها .والنّوع . يقال : هذا الأمر على ثلاث صور . وصورة الشيء :ماهيته المجرّدة ، وخياله في الذهن ، أو العقل . [٢]

مما سبق يتضح أن معنى الصورة يدور على رسم الأشياء حقيقة في الواقع، أو تخيلها على شكل معين في الذهن ، يقترب ، أو يبعد عن واقعه، ومن هنا جاءت أهمية الصورة في الشعر لا لنقل وقائع الأشياء كما هي ، فالشاعر ليس آلة تحبس لنا المشاهد لتوثيقها ، وإنما ليعبّر بها عن مشاعره، وأحاسيسه. فالصورة التي يستخدمها الشاعر في تضاعيف قصيدته عميقة الجذور في عالمه الشعوري أو اللاشعوري ، وإنها تعبيرٌ متسام عن عواطفه ورغباته المكبوتة أو المعلنة . [٣]

فالعاطفة هي المحرك الأساس في تكوين الصورة ، وهي اللاعب الرئيس في وضع تفاصيلها ، فمن خلال العاطفة يمكن أن يرسم الشاعر تفاصيل دقيقة عندما يعبّر عن تصوراته ، وخيالاته . يقول كولردج : إن الصورة وحدها مهما بلغ جمالها ، ومهما

[١] سورة الانفطار أية ٧ ـ ٨

[٢] المعجم الوسيط ص ٥٢٨

[٣] العاطفة والإبداع الشعري دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، د. عيسى على العاكوب ، دار الفكر ١٤٢٣ هـ دمشق ، ط١ ص ١٤٨

كانت مطابقتها للواقع ، ومهما عبر عنها الشاعر بدقة ليست هي الشيء الذي يميز الشاعر الصادق ، وإنما تصبح الصور معيارا للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة ، أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة أثارتها عاطفة سائدة ، أو حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة ، والتتالي إلى لحظة واحدة ، أو أخيرا حينما يضفي عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية .[١]

وهذا لا يعني أن الصورة المسوقة غرضها أن تنقل مشاعر الشاعر فقط ، فالأدب بشكل عام ، والشعر بشكل خاص كان منذ العصر الجاهلي أداة فاعلة بيد المجتمع ، لذلك لم تقتصر وظيفة الصورة في نقل مشاعر مبدعها، وأحاسيسه ، وأفكاره فقط ، و إنما صارت وظيفة الصورة الشعرية مرتبطة بوظيفة الشعر نفسه . ولما كان الشعر منذ العصر الجاهلي ذا وظيفة اجتماعية ، اهتمّت الصورة فيه بخدمة المجتمع بأشكاله المتنوعة : القبلية ، والدينية ، والسياسية ، والمذهبية .. إلخ ، الأمر الذي أسهم في تحديد شخصية الشاعر نفسه ، فغدا لسانه من أجل مجتمعه - أيا كان شكله-يُعنى بإثارة المتلقي ، وتوجيه سلوكه بحسب ما يريد ذلك المجتمع .[٢]

وهذا الكلام لا يعني أن نلغى تأثير عاطفة الشاعر،وفكره في سير الصورة الشعرية،فليس الشعر ذا وظيفة اجتماعية فحسب كما فهمته العرب منذ العصر الجاهلي ، فكان ديوان علمها ومنتهى حكمها [٣] ، وإنما له وظائف أخرى متنوعة ،

---

[١] النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، د. محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ١٩٨٠ م ، بيروت ص٢٩٢ نقلا عن كولردج ص ١٦٨

[٢] انظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ،د. جابر عصفور ، المرك الثقافي العربي ١٩٩٢ ، بيروت ، ط ٣ ، ص ٣٢٨

[٣] انظر : طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، قراءة وشرح أبي فهر محمود شاكر ، مطبعة مدني ، مصر ج ١ ص ٢٤

وبالتالي فليست الصورة التي هي لبّ التجربة الشعرية ذات وظيفة اجتماعية فقط ،بل إن لها وظائف أخرى ربما تجاوزت وظائف الشعر نفسه ، نعم ، قد يكون الفنان غالبا – والشاعر فنان – وليد زمانه ومكانه ، ومعبّرا عن تطلعات أمته ، وكشوفات طبقته الاجتماعية ، وبالتالي فهو ضمير شعبه ، ومنارة قومه لأنه يشارك مشاركة فعلية في حلّ جميع المعضلات التي تواجه الأمة ، وتعترض مسيرتها المستمرة ، وكثيرا ما يدفع دمه ثمنا لذلك [1] ، فمن الخطأ أن نوجه وظيفة الصورة الشعرية ، والتي هي جزء من وظيفة الشعر بشكل عا نحو خدمة المجتمع فقط ، لأننا بفعلنا هذا ، نحوّله إلى أداة حابسة للمشهد الخارجي فقط ، ونحن نعلم أن الشعر هو روح ، و وجدان ، تنطق به اللغة .كائن حيّ يتحرك من خلال حركة اللفظ ، والمعنى . والصورة هي جزء من هذه الحركة لهذا الكائن المتجدد .

إذاَ عرفنا أن الصورة الشعرية هي أداة للتعبير عن الذات ، وعن المجتمع بشكل عام ، نجد أن البردّوني أخذ بهذا الاتجاه فجاءت صوره تعبيرا عمّا بداخله ، وتنفيسا عن معاناة ذلك المجتمع ،وبما أن البحثمتجه إلى أساليب السخريّة عند البردّوني ، فإنه لن يخوض في غمار الصورة الشعرية في التجربة البردّونية بشكل عام ، وإنما سيحاول أن يقف مع الصورة الشعرية الساخرة ، أو ما يسمى بالكاركاتور ، وهي ككلّ الصور التي يحاول من خلالها الكاتب أن يرسم لنا أبعادا جديدة للصورة تختلف عن أبعادها المعتادة ، وتحوّل الكلام من مجرد هجاء عادي إلى رسم كاريكاتوري

[1] الطبيعة الانفعالية العقلانية للإبداع الفني ، د. حسين جمعة ، مجلة الفيصل ، عدد ٥٦، سنة ٥ ، ١٤٠٢ هـ ، كانون الأول ١٩٨١ م ص ٥٦

ساخر [١] ، فهذا الاتجاه قد عبّر عنه العقاد في وصفه لهجاء ابن الرومي قائلا : على لصاحبنا فنّا واحدا من الهجاء لا نرتاب في أنه كان يختاره ويكثر منه ... ونعني به فنّ التّصوير الهزليّ ... فهو مطبوع عليه [٢] ، فالصورة التي يبحث عنها البردّوني هي صورة تحاول أن تعري المجتمع الفاسد ، لكنها في نفس الوقت تحاول أن ترسم شيئا من الضحكة ، على وجه البؤس الذي تولد من ظلم المجتمع ، فهو يحاول أن يرسم تلك الصورة التي تختّل فيها المقاييس ، ونكاد لا نتمثّلها في ذهننا حتّى ننفجر مقهقهين [٣] ، إننا عندما نبحث عن مثل هذه الصور لا نبحث عن إضحاك البردّوني لمجتمعه ، وإنما نبحث عن ذلك السوط الساخر ، الذي ألهب البردّوني به جسد أمته كي تصحو من سباتها العميق ، نبحث عن تلك البسمة المتلبسة بعمق الدمعة الغائرة في جوف المعاناة من تلك المآسي التي يسبح فيها مجتمع يرزح تحت الأثقال . فعندما يرسم لنا البردّوني بقلمه صورة تلك البيوت في ليله الخاص ، تأتي مشبعة بنزف الألم

هذي البيوت الجاثمـــــات إزائي ليل من الحرمان والإدجـــاء

من للبيوت الهادمات كأنــــــها فوق الحياة مقابر الأحيـــــاء

تغفو على حلم الرغيف ولم تجـــد إلا خيالا منه في الإغـــــفاء

وتضم أشباح الجياع كأنــــــها سجن يضم جوانح السّجـــناء

وتغيب في الصمت الكئيب كأنــها كهف وراء الكون والأضـــواء

---

[١] أساليب الهجاء في شعر ابن الرومي مقاربة أسلوبية في جماليذة القبح ، عامر الحلواني ، مطبعة التفسير الفني تونس ، ط ١ ص ٤٠

[٢] ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٨٤ م ، ص ١٩٥

[٣] فن الهجاء وتطوره عند العرب ص ٤٩٨

خلف الطبيعة والحياة كأنـــــــها شيء وراء طبائع الأشـــــياء

ترنو إلى الأمل المولّي مثـــــلما يرنو الغريق إلى المغيث النائي

وتلملم الأحلام من صدر الدجـــى سودا كأشباح الدجى الـــسوداء

هذي البيوت النائمات على الطوى نوم العليل على انـتفاض الداء

نامت ونام اللـــــيل فوق سكونها وتغلفت بالصّمت والظـــلماء

وغفت بأحضان السكون وفوقـها جثث الدجى منثورة الأشـلاء

وتململت تحت الظلام كأنـــــها شيخ ينوء بأثقل الأعـــباء

أصغى إليها الليل لم يسمـــع بها إلا أنين الجوع في الأحشـاء [1]

لقد حاول أن يرسم البردّوني تلك الصورة المأساوية لهذه البيوت ، فهي ليل من الحرمان ، وهي قبور تحتضن الأحياء ، وغاية حلمها أن تجد الرغيف الذي أصبح مجرد خيال تعيشه في أحلامها. إنها حياة كما وصفها البردّوني خلف الحياة ، حياة من عالم آخر . إن هذا الرسم يتواصل بتلك الصورة الساخرة من هذا الحياة ، الحياة التي أصبحت سجنا لا يقطنه الناس، فمن ينزل في هذا السجن انتفت عنه روح البشرية ، وحكم عليه الجوع أن يصبح شبحا لا يكاد يرى . هذه الأوجاع تلملم في صورة شيخ كبير أعياه المرض وهدته الأعباء التي يرزح تحتها،هذه الحياة المدفونة، المسحوقة، يصور لنا البردّوني تجاهل الناس لها في الختام بإصغاء الليل لها ، فمع سكون الليل، وهدوئه لم يستطع من ضعف وهزل تلك الحياة أن يسمعها ، فاضطر إلى أن يصغي ليسمع أنينا وبكاء يتحشرج في الجوف .

[1] ديوان البردّوني ص ٨٩ ، ٩٠

لم تختتم رحلة البردّوني مع المعاناة فيكملها برحلته مع شيخ مرّ به .

مررت بشيخ أصفر العـــــقل واليد يدبّ على ظهر الـطريق ويجتدي

ثقيل الخطا يمشي الهوينى بجـــوعه وأحزانه مشي الضرير المـــــقيد

ويمضي ولا يدري إلى أين ينتـهي ولم يدر قبل السّير من اين يبتدي

ويزجي إلى الأسماع صوتا مجرّحا كئيبا كأحلام الغريـــــب المشرّد [١]

هذه الصورة التي ترسم حيرة ذلك الشيخ الكبير الذي يسير بلا هدى كأنه أعمى لا يكتفي بقيود العمى عليه ، وإنما تزداد معاناته بقيود إضافية كبلت حركة سيره ، فأصبح تائها لا يدري إلى أن يسير ، وأين ينتهي به الطريق، كئيبا ، كحلم الغريب المشرّد ، لم تكن هذه الحيرة ، والضعف خاصة بالبشر فقط ، فهي صفة تشمل كل الحياة ، فهاهو ذا ليل البردّوني يسير على نفس الصورة .

كئيب بطيء الخطى مُلـَـم يسير إلى حيث لا يعـلم

ويسري ويسري فلا ينتــهي سراه ولا نهجه المظلم

وتنساب أشباحه في السّكون حيارى بخيبتها تحــلم

هو الليل في صمته ضـــجّة وفي سرّه عالم أبكـــم

كأن الصبابات في أفقـــــه تئن فترتعش الأنـــجم

حزين غريق بأحزانـــــــه كئيب بآلامه مفـــــعم

كأن النجوم على صـــــدره جراح يلوح عليها الدّم [٢]

---

[١] المرجع السابق ص ٩٦
[٢] المرجع السابق ص ١٣٣

فلو أردنا أن نصور ذلك الليل ونجومه جراحا تنزف منها الدماء لكان تصويرا ، ينبض بالمعاناة التي تجتاح كيان البردّوني ، المعاناة التي يرى البردّوني أن سببها الرئيس هو ذلك الحاكم الطاغي .

سل الدّرب كيف التقت حـولنا ذئاب من الناس لا ترحـم

وتهنا وحكـامنا في المتاه سباع على خطونا حـوّم

يعيثون فينا كجـيش المغول وأدنى إذا لوّح المـغنم

فهم يقتنون ألـوف الألوف ويعطيهم الرشوة المـعدم

ويبنون دورا بأنقـاض ما أبادوا من الشعب أو هدّموا

أقاموا قصـورا مداميكها لحوم الجماهير والأعـظم

قصورا من الظـلم جدرانها جراحاتنا ابيضّ فيـها الدّم

أخي إن أضاءت قصور الأمير فقل :تلك أكبادنا تُضـرم [1]

لقد حاول البردّوني أن ينقل تلك الصورة الظالمة للحاكم ، الذي تسلط على الشعب فكانت مطامعه تتحقق من خلال استغلال الشعب ، فالقصور هي لحوم الشعب ، والجدران هي الجراحات التي تنزف الدّم ، لكن البردّوني لا يرى الحاكم هو المذنب ، فالمذنب الحق هو الشعب .

لا تلم قادتنا إن ظلـموا ولم الشعب الذي أعـطى الزّماما

كيف يرعى الغنم الذئب الذي ينهش اللحم ويمتـصّ العظاما

قد يخاف الذئب لو لم يلق من نابه كلّ قطـيع يتحامى

[1] المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

ويعفّ الظالم الجـــــــلاّ د لو لم تقلده ضــــــــــحاياه الحساما

لا تلم دولتنا إن أشــــــبعت شره المخـــمور من جوع اليتامى

نحن نســـقيها دمانا خــمرة ونغذّيــــــــــــــها فتزداد أُواما

ونهدّي مســـــــــتبدا زادُهُ جُثث القتلى وأكـــــــباد الأيامى

كيف تصحو دولة خــمرتها من دماء الشعب والشعب الندامى ؟ [1]

لقد رسم للحاكم صورة الذئب الذي يرعى الغنم ، ذلك الذئب الذي لا يجد مقاومة ، بل إنّ كل الأمور تقدم له دون عناء ومشقة ، لتكتمل تلك الصورة الساخرة من ضعف الشعب حيث جعله خمرة سائغة الشراب ، يتناولها الحاكم بهناء ويسر متى ما أراد في جو احتفالي تقدم فيه جثث الشعب وأكباد الأيتام طعاما يتلذذ بتناوله ذلك المستبد ، لتكتمل الصورة عند البردّوني في ذلك الموقف الذي يدعو للحيرة التي قادته للسؤال عن الخلاص ، فسكرة الدولة بشكل عام لن تنتهي لأن ما يقدم من خمرة هي دماء الشعب ، وهم ندماء الدولة في الشراب في نفس الوقت .لقد ملّ البردّوني العيش في إطار هذه الدولة الظالمة كما يراها لأنها قتلت كل نبوغ للشعب ، واتخذت من شعبها سلما تتسلق عليه

بنت من دم الشعب عرشا خضيبا ورضّت جماجـــــمه مقعدا

وأطفت شبابا أضاءت منـــــــــاه فأدمى السّنا حكمها الأرمدا [2]

هذه الصورة الساخرة للدولة وهي تبني من دم الشعب عرشا ، وتتخذ من جماجمه مقعدا ، وتأتي جملة رضّت لتكمل رسم تلك الصورة القاسية في تعامل الدولة مع

[1] المرجع السابق ص ٢٦٤
[2] المرجع السابق ص ٢٧٤

الشعب ، فتصور تلك الدولة وهي ترفع تلك الجماجم ،ثم تلقيها بكل عنف على الأرض ، صانعة من حطامهامقعداً مريحا تستمتع بالجلوس عليه ، ثم يرسم لنا تلك الصورة التي تظهر نبوغ الشعب وأمانيه في هيئة نور تمتد إليه يد الدولة لتطفئه ، ويستمر البردّوني في كشف زيف هؤلاء الحكام .

يبنون بالظلم دورا كي نمــجّدهم ومجدهم رجس أخشاب وأحجار

لا تخبر الشّــعب عنهم إنّ أعينه ترى فظائعهم من خلف أســتار

الآكلون جراح الشــعب تخبرنا ثيابهم أنّهم آلات أشــــــرار

ثيابهم رشوة تُنبــــي مظاهرها بأنّها دمع أكبـــــــاد وأبصار

يشرون بالذّل ألقابا تســـتّرهم لكنّهم يسترون الــــعار بالعار

تحسهم في يللمستعمرين كما تحسّ مسبحة في كــــفّ سحّار [1]

يستمر البردّوني في رسم تلك الصورة البشعة للحاكم المستبد ، فيصوره في صورة من يتستر ، لكن كل معائبه تظهر من خلف الأستار ، ثم يصوره في وجبة دسمة وهو يأكل جراح الشعب ، ثم تلك العمالة القذرة للمستعمر التي أنهاها بتلك الصورة الساخرة ، عندما صورهم كمسبحة تتلاعب بها كفّ سحّار،وهي لا حول لها ولا قوة، إلا أنها أداة لخداع الناس ، والسيطرة عليهم .

لم يكتف البردّوني في رسم تلك الصورة الساخرة المظلمة للحاكم ، بل راح يرسم له صورة أكثر بشاعة عندما أخذ يتندر به ويصوره بتلك الصور الدنيئة

ويولّي على الوزارات والـحكـ ـم رجالا كالعـــــــانسات النّواقم

[1] المرجع السابق ص ٣٣٤ ، ٣٣٥

ولصوصا كأنهم قوم يأجـــو ج صغار الذّهى كبار العـــــمائم

وطوال الذّقون شـــعثا : كأهـ ـل الكهف بل الكهوف صمّ أعاجم

يحكمون الجموع والعدل يبكي والمآسي تدمي سقوف المــــحاكم [1]

إنّ هذه الصورة المشوهة التي يرسمها البردّوني للحاكم تدل على قدر الكراهية التي يحملها له لدرجة أنّه يحاول أن يشوه تلك الصورة بأمور يراها الشعب من الدناءات ، فعندما يجعل الحاكم عبارة عن عانس ناقمة على الشعب لأنّه سبب في جعلها تعيش هذه الحياة فلا يستغرب ما يصدر منه من أحقاد ، وعندما يجعله لصّا لا يشبع ، ولا يفكر لأنّه ليس له عقل ، فسيكون كل همّه ما يجمعه من مغانم دون مراعاة عقل ولا عرف ، هذا الحاكم الذي تصرف بهذا الشكل لا بد أن يحاول البردّوني أن يرسم له صورة مخيفة ، فجاءت صورة أصحاب الكهف ، وما تحمله من معنى مستقر في بشاعة المظهر فمشاهدتهم تدعو للفرار وتملأ النفس رعبا .

ليستمر البردّوني في رسم تلك الصورة الساخرة .

كلهم متحف الغــباء ...وكلّ يدّعي أنه مــــــحيط المــــعاجم

فيلوكون من مريض التّواريـ خ حروفا من فهرسات ...التّراجم

كيف هنّا فقادنا أغــــــبياء ولصوص مــــــــتوّجون أكارم ؟

وصِغار مؤنثون وغيـــــد غاليات الحلى رخاص المــــباسم [2]

هذا التصوير يحاول أن يشخص فيه البردّوني صورة الحاكم التي لا يستحق معها أن يكون قائدا للأمة ، فالغباء ، والأنوثة الرخيصة كلها أمور جعلت من هذا الحاكم

[1] المرجع السابق ص ٣٨٢
[2] المرجع السابق ص ٣٨٣

صورة هزلية حاول البردّوني أن يحوك حولها رسوما تبرز تلك السيئات التي ارتكبها في حق الشعب .

لم يكن الحاكم هو السبب الوحيد في تدني الأمة في اعتقاد البردّوني ، فالشعب له يد أيضا في الوصول إلى هذه الحالة ، فلا نستغرب إذا امتدت يد البردّوني لترسم صورة ذلك الخضوع الذي كان سببا في طغيان الحاكم، وسببا في ذلّة الشعب .

لأنا رضـــعنا حليب الخنوع   تقمّصنا من صبانا الخـــضوع

فجعنا ليـــــــكتظّ جلا ّ دنا   ويطغى وننسى بأنّا نـــــجوع

وحين شعرنا بنـــهش الذئا   ب شددنا على الجرح نار الدّموع

ورحنا نجيد ســباب الدّجى   ولم ندر كيف نضيء الشّـــموع

نفور وتطـــــــفئنا تفلة   فنمتص إطفاءنا في خـــشوع

ولمّا سمعنا انفجار الشّعوب   أفقنا نرى الفجر قبل طـــــلوع

ويوما ذكـــــرنا بأنّا أناس   فثرنا ومتنا لتحيا الـــــجموع

ولكن لبــــسنا رداء الأباة   وفي دمنا المســــتضام الهلوع

فحين انتوينا شروع المسير   حذرنا المـــــغبّةقبل الشّروع

وقلنا أتى من وراء الحدود   جراد غريب فأشـــــقى الرّبوع

وليس عـدانا وراء الحدود   ولكن عدانا وراء الضـــــّلوع

فقد جَلت الرّيح ذاك الجراد   فكنّا جرادا وكنّا الــــــزّر وع . [1]

---

[1] المرجع السابق ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦

لقد حاول البردّوني أن يرسم في صوره السابقة حالة الخضوع التي تعيشها الأمة، فساق تلك الاستعارات الساخرة في بيان مستوى الذلّ الذي وصلت له الأمة ، فمن رضاعة حليب الخنوع ، إلى تقمص الذلّ وكأنه لباس إلى أن يصل إلى تلك الصورة العجيبة ، التي رسمها بيد فنان ، تلك الصورة الساخرة من درجة الذلّ الذي وصلت إليه الأمة ، صورة فوران الأمة فيجيء إطفاؤها بتفلة ، لتجمع القلة مع الحقارة في نفس اللفظ ، ذلك الموقف الذي رسمه البردّوني لهذا الشعب الذي تخمد توهجه ، وثورانه هذه الحقارة ، يستحق ما يعانيه من ألم وظلم ، وجور . لتكتمل الصورة لدى البردّوني فالجراد الذي يقضي على كل شيء لم يأت من هجرة خارجية ، إنه جراد وطني ، أباد هذا الجراد زروع الوطن .

لقد انغرس في عقل البردّوني أن هذا الشعب ، أصبح يقاد كما تقاد البهائم ، فأصبح يرى أن ما يحصل له من ظلم هو بيده لا بيد غيره ، فلا نعجب من تلك الصور التي يرسمها البردّوني لشخصية هذا الشعب

غير رأسي ... أعطني رأس جمل غير قلبي ... اعطني قلب حمل

ردّني ماشـــــئت ...ثورا نعجة كي أســـــــــــمّيك يمانيّا بطل

كي أسمّيك شـــــريفا ... أو أرى فيك مشروع شريف محـــــتمل [1]

إنّ هذا المشهد الساخر من حال المجتمع يجعل البردّوني يجسم هذه الأشياء ، ليبين مستوى نظرة الحاكم لهذا الشعب ، فما يقوم به واضح للعين ولكي يقبل به لا بد أن تجرى له تغييرات ، تصل لدرجة الخروج من الآدمية،ومع ذلك نجده يتندر بقوله كي

[1] المرجع السابق ص ٧٦٣

اسميك يمانيا ، وكأن الاستغفال أصبح عادة الشعب وديدنه . فأصبح ذلك الحاكم المزيف أسطورة يهابها الشعب دون مبرر .

وما حكمهم ؟ جاهلي الهوى تقهقه من سـخفه الأيّم

وأسطورة من ليالي جديـ س رواها إلى تغـلب جرهم

ومطعمهم رشـوة والذّبا ب أكول إذا خبث المـطعم

رأوا هدأة الشعب فاستذأبوا على ساحة البغي واستضغموا

وكلّ جبان شجـاع الفؤا د عليك إذا أنت مسـتسلم

وإذعاننا جرّأ المـفسدين علينا وأغراهم الـمأتم [1]

تلك العادة التي جعلت من يستبد لا يرعوي عن جوره ، بل يزداد طغيانه يوما بعد يوم،لأنه وجد ذلك الخنوع من الشعب ، واتصف في نفسه باللؤم ، فجمع بين دناءتين .

وسل : كيف لِنّا لعنف الطغا ة فعاثوا هنا وهنا أجـرموا ؟

فلا نحن نقوى على كـفّهم ولا هم كرام فمن ألـوم ؟

إذا نحن كنّا كرام القـلوب فمن شرف الحكم أن يكرموا

وإن ظـلمونا ازدراء بنا فأدنى الدّناءت أن يظـلموا

وإن أدمنوا دمنا فالوحو ش تعبّ النّجيع ولا تـسأم

وإن فخروا بانتصار اللئا م فخذلاننا شرف مـرغم

وسـائلنا فوق غاياتهم وأسمى وغـاياتنا أعظم

فنـحن نعفّ وهم إن رأوا لأدناسهم فرصـة أقدموا

---

[1] المرجع السابق ص ٢٣٨

وإن صعدوا سلّما للعروش فأخزى المخازي هو السـلّم [1]

هذه هي صورة ذلك الحاكم المستبد الذي لا يرقب في هذا الشعب المضطهد أي حق ، فهو متسلط متجبر ، تقوده رغباته إلى سحق كلّ من يواجهه . ولم يكن تسلط الحاكم ، وإذعان الشعب ، هو المحرك لطاحونة الظلم فقط ، فالبردّوني يرى أن أبواق الصحافة الصفراء كان لها دور في استبداد هؤلاء الحكام ، فاخذ يصور لنا دور هذه الصحف ، تصويرا يرسم من خلاله موقفه من هذه الصحف وهو يعنون لنصه بعنوان يرسم من خلاله بداية السخرية منهم ، فعندما يعنون البردّوني للنص بجلالة الفئران، كأنه يقول هؤلاء الذين تقدرونهم ، وترفعون مكانهم ، ماهم في الحقيقة إلا مجموعة من الفئران ، تقتات من عرقكم ، وتقرض آمالكم ، وتقطع تموحاتكم ، لمصالح شخصية ، ومؤامرة تحمل نوايا سيّئة .

سادة التحرير من حمــّلهم مهنة الحرف ؟ وهم أضرى عصابه

قضموني من هنا من ههنا أيّ فئران أرى ؟ من أيّ غــــــابه

إنهم نعل الذي يعــــلوهم وعلى من دونهم أبطــــــــال بابه [2] [3]

لقد صور البردّوني أرباب الصحافة في بلاده ، وكيف كانوا مطية للساسة، فلم تكن أمانة الحرف هي المحرك لأقلامهم ، بل كان المحرك الحقيقي هي أطماع شخصية . لقد صورهم بأنهم عصابة تسرق آمال الشعب ، وبأنهم فئران تخرب هذا البلد ، ولا

[1] المرجع السابق ص ٢٣٧ ، ٢٣٨

[2] بابه : المسرحية البدائية ، كما أطلقوا هذه التسمية على كل مسرحية شعرية كتبها محمد بن دانيال الموصلي بمصر في أول القرن الثالث عشر الميلادي

[3] ديوان البردوني ص ١٥٢٧

تصلحه ، وهم نعال للسادة ، وحتى بطولتهم على الضعيف هي بطولة هزلية كبطولة أبطال مسرحية بابه .

يستمر البردّوني في كشف زيفهم ، ومؤامراتهم .

ذلك الفن الذي تعـــــــــمره من حنايا القلب تلقـــــاه خرابه

جئت من مطبعة ؟ قل صـــــادقا جئت من مسبــــعة يا للغرابه

سايسوها ما لهم لـــــــــبّ لذا يحسبون الشّعب مـعدوم اللّبابه

أين منك الصوت ؟ دسّوا من فمي غير حلقي حطّموا تلك الرّبابه

أين كفّاك ؟ أتدري ما شـــــووا إصبعا إلا وظــــذّوها كبابه ؟ [1]

إن هذه الصحافة التي ساسها هؤلاء غدت خرابة ، لأن ساستها بلا عقول، ويحسبون كلّ الناس أمثالهم ، فهم ينفذون أجندة من يعملون لحسابهم ، دون النظر لمصلحة الوطن ، فهو آخر ما يشغل بالهم .

نفّذوا أمر الذي أمّرهم والذي أركبهم ظهر النّـــقابه

فغدوا جيشا مداديّا إلى فيلق الفوضى وللغازي مثابه [2]

لقد صورهم بأنهم جيش من حبر ينفذ أوامر من جعلهم في هذه المناصب ، ومن حكمهم في أمور الفكر ، يقولون بجهلهم ، ويخططون بمؤامراتهم لإسقاط كل شريف .

مع كلّ هذه المأساة التي يعيشها البردّوني من حال الحكام ، وخنوع الشّعب، إلا أنه يعود كعادته ليزرع أمل المستقبل، أملا يراه قادما من نهضة الجموع، وقهرها للظلم ، فمهما استبد الظلم لا بد من يوم تشرق فيه شمس العدالة .

[1] المرجع السابق ص ١٥٢٦
[2] المرجع السابق ص ١٥٣٠

هدّدونا بالقيد أو بالـــــــسّلاح واهدروا بالزّئير أو بالنـــــــّباح

وكلوا جوعنا وسيروا على أشـ لائنا الحمر كالخيول ... الجماح

واقرعوا فوقنا الطّبول وغـطّوا خزيكم بالتّصنع الفـــــــــضّاح

هدّدونا لن ينثني الزّحـف حتّى يزحف الفجر منجميع النّواحي [١]

إن التصوير الذي يرسمه البردّوني لحال الخلاص لا يخلو من سخرية لوضع قائم يتمنى زواله ، فالاستخفاف بهم لدرجة عدم تمييز أصواتهم أهي زئير أسود أو نباح كلاب ، وتصوير ظلمهم بأكل الجوع ، دلالة على نهمهم ، وتسلطهم على هذا لشّعب الذي لم يتركوا له حتى الجوع . لتأتي بادرة الأمل فالفجر لا بد أن يطلع ، ويزحف كجيش فاتح يبيد ظلمة الظلم .

لأن هذا الوطن الشامخ لن يستسلم ، مهما جار الظلم ، وتغطرس الظالم .

لن يستكين ولن يستـــــــسلم الوطن توثّب الروح فيه وانتخى البدن

أما ترى كيف أعلى رأسه ومـــضى يدوس أصنامه البلها ويـــمتهن

وهبّ كالمارد الغضبان متــــــشحا بالنّار يجتذب العليا ويحـــتضن

فزعزعت معقل الطغيان ضـــربته حتى هوى وتساوى التّاج والكفن

وأذن الفجر من نيران مدفــــــعه والمعجزات شـــــفاه والدّنا أذن

تيقظت كبرياء المجد في دمـــــه واحمرّ في مقلتيه الحقد والإحن

يا صرعة الظلم شقّ الشعب مرقده وأشعلت دمه الثّارات والضّغن

[١] المرجع السابق ص ٣٥٩

ها نحن ثرنا على إذعاننا وعـــلى نفوسنا واستثارت أمّنا اليمــن [1]

إنها الغضبة التي يحلم بها البردّوني ، ويمنى النفس أن يراها ما ثلة أمامه، لأنه يرى أن أمته تستحق أن تعيش في مستوى أفضل مما هي فيه ، ولأنه يؤمن أن هذا الشّعب وإن ظلم وانتهكت حقوقه إلا أن له ماضيا مجيدا يرفض أن يكون هذا حاضره لذلك سوف يجاهد ليستعيد ماضيه في مستقبله.

[1] المرجع السابق ص ٣٦٥

نتائج البحث

في نهاية البحث يمكن أن نقول إنّ أهم النقاط التي توصل البحث إليها هي:

١ ـ أن الأدب يمكن أن يكون مرآة يستطيع من خلاله المتابع أن يتعرف على شخصية الأديب ، وعصره .

٢ـ أن السخرية فنّ من الفنون الأدبية التي يستطيع من خلالها الأديب أن يعبّر عن مشاعره ، وآماله ، ويستطيع من خلالها أيضا أن يرسم توجهاته، وأفكاره.

٣ـ إنّ استخدام البردّوني للأسلوب الساخر ، وإن كان فيه تنفيس عن مشاعره، إلا أن هدفه الأساس هو إيقاظ أمته من سباتها لتقف في وجه كل من سلبها حقوقها .

٤ ـ تنويع البردّوني لأساليبه الساخرة يعطي دليلا واضحا أنه كان متمكنا ، وقادرا على استيعاب فنون هذا الأسلوب الأدبي ، وذلك من خلال اطلاعه على التراث العربي ، والغربي في هذا الفن ، كما أن روحه الفكاهية كان لها أثر واضح في تبنيه لهذا الأسلوب .

٥ ـ بالتعمق في حياة البردّوني ، ونتاجه الأدبي يتضح للبحث انه أمام قامة أدبية عظيمة تستحق من الدارسين تسليط الضوء على أدبه بشكل عام، فالبردّوني ليس شاعرا فحسب ، بل هو أديب يجيد سبك حروف النثر ، بقدر نظمه لعقود الشعر ، وكتبه المطبوعة تدل دلالة واضحة على هذه المقدرة .

٦ـ قد يختلف النقاد مع توجهات البردّوني ، وخاصة الفكرية منها ، أو طرحه للبعض الموضوعات الشعرية ، لكن يظل رأي البردّوني ، قابلا للصواب والخطأ ، لكن هذا

لا يعطي الحق لمن أراد التنقص من قامته الأدبية أن يضع العراقيل أمام التعمق في عالم البردّوني الأدبي ، وسد الطرق أمام الباحثين عن التعمق في تجربته الإبداعية

٧ ـ أخيرا إن البحث حاول أن يلم بجوانب سخرية البردّوني من كل أطرافها ، لكنه عمل بشري يعتريه النقص مهما بلغ من الإتقان ، فهناك جوانب لم يستطع مركب البحث أن يرسو على شاطئها قد تكون موانئ جديدة يستطيع دارس آخر أن يبحر من مرفئها .

توصيات البحث

١ ـ يوصي البحث بالاهتمام بدراسة الأدب الساخر في الأدب العربي ، والتعمق مع التجارب الابداعية الساخرة ، لأن السخرية فنّ يجب الاهتمام به كجميع الفنون .والمكتبة العربية تعاني من قصور في هذا الجانب .

٢ ـ يوصي البحث بتسليط الضوء على أدب البردّوني من كل الجوانب ، الفنية والنفسية ......إلخ ، للوقوف مع تجربته الأدبية بشكل متعمق ، وواسع .

الخاتمة

لقد تناول البحث جانب السخرية في شعر البردّوني ، وحاول من البداية أن يبحر في شواطئ البردّوني الساخرة ، وقد جاء البحث في مقدمة ، وتمهيد، وفصلين .

تحدثت المقدمة عن أهمّ معالم الدّراسة ومقتضياتها .وجاء التمهيد ليتحدث عن أهمية الموضوع ، وعن أسباب اختيار الموضوع ، والدراسات السابقة ، ليبحر بعد ذلك في حياة البردّوني منذ ولادته إلى وفاته ، ليعطي المتلقى نبذة عن حياة الأديب موضع الدراسة ، ثم جاء الفصل الأول من الدراسة ليسلط الضوء على معنى السخرية موضع الدراسة، وكيف استخدمها الأدباء في تناولهم الأدبي . وبعد ذلك تحدث البحث عن أسباب توجه البردّوني لأسلوب السخرية ، واستخدامه أداة تعبيرية ، يخوض بها غمار تجربته الأدبية ، معبّرا بها عن مشاعره ، وأفكاره ، وأمته ، وقد أرجع البحث هذه الأسباب إلى قسمين :

١ ـ ذاتي يعود إلى البردّوني نفسه ، وهو ما تمثل في أمور أهمها كان العمى الذي أفقده التمتع بالحياة كالأصحاء ، وفقد أمه الذي زاده معاناة إلى معاناته فهي الحبيبة ، والمعينة على نوائب الزمان بعد أن هجره الأهل والإخوان . وثقافته الساخرة التي تتلمذ فيها على أستاذه أبي العلاء المعري، ونهل من معين ملهمه الجاحظ ، وانغمس في صور ابن الرومي ، ولم يقتصر تأثره بالأدب العربي ، وإن كان المحرك الأساس له في انطلاقه لرحاب هذا الأسلوب ، بل وجدناه ينهل من معين الأدب الغربي في هذا الاتجاه .

٢ ـ أما الجانب الثاني فقد كان خارجيا ، وقد تمثل في الظروف السياسية التي عانى منها البردّوني أشد المعاناة ، والظروف الاجتماعية التي أكملت رسم معاناته ، ليصبح لا كما قال أستاذه في الثلاثة السجون ، بل إنّ كل ما يحيط به سجن يضاف إلى سجونه .

ويأتى الفصل الثاني ليقدم دراسة فعلية عن أهم الطرق الأسلوبية التي استخدمها البردّوني في التعبيّر عن سخريته ، فوجد البحث أن أهمها هي ستة أساليب : الاستفهام، والمبالغة ، والتكرار ، والحوار ، والمفارقة ، والصورة الساخرة . أسأل الله العزيز القدير أن يكون البحث قدم المفيد ، والجديد،وأن يكون إسهاما جادا في إثراء المعرفة ، إنه القادر على ذلك والمعين عليه ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه آجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

المصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تقديم وتعليق الدكتور مصطفى ديب البغاة ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار ابن كثير ١٤٠٧ هت .

٣ ـ أساس البلاغة ، جار الله محمود الزمخشري ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٢ هـ .

٤ ـ تاج العروس من جوهر القاموس ، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، راجعه ، د ـ أحمد مختار عمر ، د۔ عبد اللطيف محمد الخطيب ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م .

٥ـ التعريفات ، على محمد الجرجاني ، حققه وقدم له ـ إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ م ، ١٤١٣ هـ .

٦ ـ تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأهري ، تحقيق د۔ رشيد عبدالرحمن العبيدي ، الهيئة العامة للكتب الإسكندرية ، ١٩٧٥ م .

٧ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٧ م .

٨ ـ الخصائص ، صنعة ابي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد النجار ، دار الكتاب العربي ن بيروت لبنان .

٩ ـ ديوان الحطيئة ، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م .

١٠ ـ ديوان سقط الزند ، تحقيق ، الأساتذة / مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود، عبد السلام هارون ، إبراهيم الإبياري ،حامد عبد المجيد، بإشراف ـ د طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

١١ ـ ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٦ م .

١٢ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة ابي العباس ثعلب ، قدم له ووضع هوامشه دـ حنا نصر الحيّى، دار الكتاب، بيروت، لبنان ، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٣ ـ ديوان المتنبي ، الشيخ نصيف اليازجي ، دار الجيل ، بيروت .

١٤ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، السيد محمود شكري الألوسي ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥ هـ .

١٥ ـ شرح اللزوميات ، نظم أبي العلاء أحمد بن عبدالله المعري ، تحقيق منير المدني ، زينب القوصى ، وفاء الأعصر ، سيدة حامد، إشراف ومراجعة الدكتور حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٦ ـ الصاحبي ، أحمد بن فارس ، تحقيق أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابلى الحلبي ، القاهرة .

١٧ ـ صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل ، بيروت .

١٨ ـ الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، حققه دـ مفيد قميحة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤ هـ .

١٩ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق عبدالحميد هنداوي ،المكتبة العصرية ،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م .

٢٠ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلاني ،تقديم و تحقيق وتعليق عبد القادر شيبة الحمد ، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز .

٢١ ـ فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ، الطبعة الأولى،بيروت، المكتبة العصرية ، ١٤١٨ هـ .

٢٢ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جارالله الزمخشري ، بيروت ، دار المعرفة .

٢٣ ـ لسان العرب ، ابن منظور ، بيروت ، دار صادر ، ١٤١٢ هـ

٢٤ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، قدمه وعلق عليه ، دـ أحمد الحوفي ، دـ بدوي طبانه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار نهضة مصر .

٢٥ ـ مختصر صحيح البخاري ، المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، تاليف ين الدين أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، الطبعة الثانية، دار المؤيد للنشر والتويع ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م .

٢٦ ـ معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن أحمد بن فارس ، بيروت دار الفكر ، ١٤١٨ هـ .

٢٧ ـ نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي

٢٨ ـ نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين خليل بن بك الصفدي، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠م .

٢٩ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي على بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ـ على محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م .

المراجع

١ ـ ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٨٤ م .

٢ ـ ابن الزبير ، عبد الرحمن محمد العمراني ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩ م ، الطبعة الأولى .

٣ ـ اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، بيروت ، دار المسيرة .

٤ ـ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، أحمد الإسكندري ، دار المعارف ن الطبعة الأولى ن ١٩٩٨ م .

٥ ـ أدب الفكاهة في لبنان ، محمد أمين فرشوخ ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م.

٦ ـ أدبنا الضاحك ، عبد الغني العطري ، الطبعة الثانية ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٢ هـ

٧ ـ الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، د ، محمد العشماوي ، دار النهضة ،ن ١٩٨٠ م .

٨ ـ أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ، عبد العليم السيد فودة ، القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

٩ ـ أساليب السخرية في البلاغة العربية دراسة تحليلية تطبيقية ،شعيب أحمد الغزالي ، إشراف ، أ.د عبد العظيم المطعني ، ١٤١٤ هـ

١٠ ـ أسلوب السخرية في القرآن ، د ـ عبدالحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .

١١ ـ أساليب الهجاء في شعر ابن الرومي مقاربة أسلوبية ، عامرالحلواني، التسفير الفني ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

١٢ ـ استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي ، د ، على زايد ن منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ليبيا ، ١٩٧٨م . الطبعة الأولى .

١٣ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، عبد الرحمن النحلاوي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، ١٩٩٥ م .

١٤ ـ الإعاقة الحسية المفهوم والأنواع وبرامج الرعاية ، د. مدحت أبوالنصر ، مجموعة النيل العربية .

١٥ ـ الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة ، إعداد / مها عبدالله الأبرش ، الجء الأول ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م .

١٦ ـ الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم ، فايزة قنطار ، دار العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨ م .

١٧ ـ الانحراف الاجتماعي ،ورعاية المنحرفين ، ودور الخدمة الاجتماعية لهم، د. محمد سلامة محمد غباري ، مصر،الاسكندرية،المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٩ م .

١٨ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، كربلاء ، مكتبة العرفان .

١٩ ـ تاريخ اليمن الحديث المعاصر ، دـ حسين عبدالله العمري ، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م .

٢٠ـ تجديد ذكرى أبي العلاء ، طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة التاسعة .

٢١ ـ الثقافة والثورة في اليمن ، عبدالله البردّوني ، الطبعة الرابعة ،١٩٩٨ م ، دار الفكر ، دمشق .

٢٢ ـ حصاد الهشيم ، إبراهيم عبد القادر المازني ، القهرة ن مطابع دار الشعب .

٢٣ ـ الحوار آدابه ، وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى زمزمي، الطبعة الثانية ن عمان ، دار المعالي ن ١٤٢٢ هـ

٢٤ ـ الدائرة والخروج ،دراسة في شعر البردّوني ، محمود رحومة ، كلية الدراسات العربية ، جامعة المنيا ، مصر ، ١٩٩١ م .

٢٥ ـ دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، دـ محمد محمد أبو موسى، الطبعة الثانية ، القاهرة ن مكتبة وهبة .

٢٦ـ ديون البردّوني ن إصدارات الهيئة العامة للكتاب ، صنعاء ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م .

٢٧ ـ الرسوم الساخرة في الصحافة ، دراسة تحليلية ، سليمان بن محمد الشبانة ، الرياض ، شركة العبيكان للطباعة والنشر .

٢٨ ـ السخرية في أدب الجاحظ ، السيد عبد الحليم محمد حسين ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ، الجماهيرية العربية الليبية ، سنة ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م .

٢٩ ـ السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د نعمان طه ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التوفيقية ، ١٣٩٨ هـ .

٣٠ ـ السخرية في أدب عبد الله النديم ،أحمد يوسف محمد خليفة ، القاهرة، مكتبة نهضة الشروق ، ١٩٩٥ م .

٣١ ـ السلوك الاجتماعي للمعوقين ، دراسة في الخدمة الاجتماعية ، د. محمد سيد فهمي ، المكتب الجامعي الحديث ، الأزاريطة ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ م .

٣٢ ـ سياسات الرعاية الاجتماعية للمعوقين في المجتمعات النامية ، د عبدالله محمد عبد الرحمن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥م .

٣٣ ـ سيكولوجية الفكاهة والضحك ، د ـ كريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة .

٣٤ ـ الشخصية ، محمد عطية الأبراشي ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٣٨ م .

٣٥ ـ شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، مصطفى الشوبري ، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م .

٣٦ ـ شعر عبدالله البردّوني ، د محمد القضاة ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٧ م .

٣٧ ـ شعراء اليمن المعاصرون ، هلال ناجي ن مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٣٨ـ الصورة الشعرية عند عبدالله البردّوني ، د ـ وليد المشوح ، كتاب الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، ٢٠٠٠ م .

٣٩ ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د ـ جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢ م .

٤٠ العاطفة والإبداع الشعري دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، د ـ عيسى على العاكوب ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ .

٤١ـ عبدالله البردّوني حياته وشعره ، د ـ أحمد إسماعيل ، الطبعة الأولى ، مركز الحضارة العربية ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م .

٤٢ ـ علم النفس الاجتماعي نظرياته ن وتطبيقاته ، د ـ عباس محمد عوض ، د ـ رشاد صالح دمنهوري ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨ م .

٤٣ ـ علم النفس الاجتماعي ، دراسات نظرية وتطبيقات عملية ،مصطفى فهمي ، محمّد على القطّان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

٤٤ـ الفكاهة في الأدب العربي أصولها وأنواعها ،د ـ أحمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

٤٥ ـ فن الهجاء وتطوره عند العرب ، إيليا حاوي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٩٨ م ـ ١٤١٨ هـ .

٤٦ ـ فنون الأدب الشعبي في اليمن ، عبد الله البردّوني ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية .

٤٧ ـ في أصول الحوار ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الندوة العالمية ، ١٤١٥ هـ .

٤٨ ـقضايا يمنية ، عبدالله البردّوني دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٦ م ـ ١٤١٦ هـ .

٤٩ ـ مبادئ علم النفس ، جمال مثقال القاسم ، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م.

٥٠ ـ المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ، عالى سرحان القرشي ، الطبعة الأولى ، النادي الأدبي بالطائف ، ١٤٠٦ هـ .

٥١ ـ المبالغة في الشعر العباسي ، عبدالعزيز عبدالله الشبيلي ، النادي الأدبي بالرياض ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .

٥٢ ـ المبالغة في الشعر العباسي ، أسبابها ـ أنواعها ـ مظاهرها ـ نماذج لها ، محمّد عبد الرحمن الربيع ، دراسات في الأدب العباسي ، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية .

٥٣ ـ متحدو الإعاقة من منظور الخدمة الاجتماعية ، عبد المحيي محمود حسن صالح ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م .

٥٤ ـ مجلة الفيصل ، العدد ٥٦ السنة الخامسة ١٤٠٢ هـ كانون الأول ١٩٨١ م (الطبيعة الانفعالية العقلانية للإبداع الفني) .

٥٥ ـ مجلة المجتمع ، العدد ١٦٣٤ ، (كيف نرسخ أدب الحوار والنقد) د. أحمد شحروري .

٥٦ ـ مجلة الموقف ، العدد ١٣ ـ ١٤ ، الرباط ، المغرب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م ، حوار مع الدكتور زكي نجيب محفوظ .

٥٧ ـ المختار من لزوميات أبي العلاء المعري ، شرح واختيار أبو محمد عبدالله ابن محمد بن السيد البطليوسي ، حققه د ـ حامد عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ م .

٥٨ ـ مدخل إلى مبادئ التربية ، د ـ محمد عكيلة ، د ـ سمير عبداللطيف هوانة ، د ـ حسن جميل طه ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م .

٥٩ ـ المدخل إلى علم الأدب ، تأليف مجموعة من الكتاب الروس ، ترجمة أ، د ـ أحمد على الحمداني ، دار المسيرة للنشر والتويع والطباعة،الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥ م ، ١٤٢٦ هـ .

٦٠ ـ المدخل في دراسة الأدب ، د ـ مريم البغدادي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

٦١ ـ المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، دار النهضة ،مصر ، ١٩٨٠ م .

٦٢ ـ مقدمة للشعر العربي ، أدونيس ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ م .

٦٣ ـ ملوك العرب ، أمين الريحاني ، مطبعة يوسف صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٤ م ، الطبعة الثانية .

٦٤ ـ من أول قصيدة إلى أخر طلقة ، عبدالله البردّوني ، دار البارودي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٧ م .

٦٥ ـ النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، دـ محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ م ، بيروت . نقلا عن كولردج .

٦٦ ـ الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ، دـ عباس بيومي عجلان ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٥ م .

٦٧ ـ الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، دـ محمد محمد حسين ،بيروت ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٩ هـ .

٦٨ ـ اليمن الجمهوري ، عبدالله البردّوني ، الطبعة السادسة ، ٢٠٠٨ م.

فهرس الموضوعات